عثمان نويه

خادمك المليونير

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلى من عاشوا فى عالم هذه القصة ، أو فى عالم شبيه به ،
علّهم يجدون فيها صدى لأحاسيسهم ومشاعرهم ؟

عثمان نوبه

obeikandl.com

obeikandl.com

تقـــدمه

بقلم حضرة صاحب المعالى ، الكاتب الكبير ، الأستاذ
إبراهيم دسوقى أباظه باشا ، وزير المواصلات

القصة فى الأدب الغربى إحدى دعائمه ، وكثيراً ما ارتفع شأن لغة من اللغات بقصة وضعها كاتب قدير فأحسن فيها وأجاد .

فلا يكابر أحد فى أن شكسبير رفع من شأن اللغة الانجليزية ، وأن هيجو وكورنيل من المتقدمين ، ومارسيل بريفو وبيير لوتى من الحديثين ، رفعوا شأن الفرنسية ، وفى اعتقادى أن شوقى برواية مجنون ليلى وكليوپاترا رفع لغة الضاد إلى السماك .

والرواية تحليل جميل ، أو شعر رصين ، أو عظة بليغة ، أو هى جميعا ، تفعل فى النفس وتؤثر فيها خيراً من ألف كتاب .

وفرق عظيم بين درس جاف فى الأخلاق ، وبين قصة تروى ، تتخللها العظات ، فتنهل منها وأنت لا تشعر بالمصص لثقل وطأة التمحيص والبحث .

فلكتاب القصة من الأفرنج أكبر الفضل فى تهذيب

النفوس ، والارتفاع بها إلى حيث يريدون أن يكون المجتمع وذلك لعمرى من أكبر الواجبات الوطنية .

والأستاذ عثمان كاتب موهوب . عرفته مرهف الحس ، صادق الشعور ، دقيق التحليل ، يعرض صوراً من الحياة ، يستعين فيها بعمق نظرته ، وسمو فكرته ، وقوة فراسته ، وعظيم قدرته على النقد وتحليل النفس .

وقد اطلعت على روايته هذه فوجدتها جديرة بالاعجاب ، تجمع بين الجد والفكاهة فى أسلوب ممتع جميل ، أرجو أن يكون له بين قراء العربية خير أثر ؟

ابراهيم رمزى أباظة

مايو سنة ١٩٤٥

الفهرس

صحيفة

الفصل الأول : ليالى اليخت ٩
« الثانى : أربعون غاده ٣٢
« الثالث : وحى الحذاء ٤٦
« الرابع : حسين يخطب ٥٩
« الخامس : ذات مساء ٦٧
« السادس : ينبوع النعيم ٨٣
« السابع : اعتدال الريح ٨٩
« الثامن : ضحك الدنيا ٩٦
« التاسع : عود على اليخت ١٠٥
« العاشر : حيرة الشاعر ١١٦
« الحادى عشر : فكرة ١٢٠
« الثانى عشر : ماذا فى الامر ١٢٤
« الثالث عشر : من مصدر وثيق ١٢٨

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ليالى البخت

عجب الشاعر مما سمع وأعاد البصر إلى صاحبه فرأى ما لم يكن قد رآه . فهذا المعنى الذى ترمز إليه عيناه لم يعد سراغامضا . إنما هو البشاشة النفسية والنورانية القلبية اللتان تسعان كل شيء وتصفحان عن كل شيء وأنه الحسب العريق والحياة الناعمة قد أكسباه الشعور الرقيق والابتسامة الدائمة .

والسمن نفسه . هل كان إلا مظهرا من مظاهر النعمة وآية من آى السعة .

هل لى أن أثق بك ؟

قالها فى لهجة الاخلاص والحب فاستيقن الشاعر أنه قد تجاوز عن فارق الثروة والجاه وأراد أن يتخذه صاحبا فسرعان ما أجاب . لك أن تثق بى كل الثقـــة وأن تطمئن إلى أن أسرارك فى حصن حصين . ولست أزكى نفسى أيها الأخ ولكن كثيرا من كرام الناس يدعوننى صديقا ممتازا — هم على حق فيما أرى فانى قد أنست إليك منذ لقيتك وتوسمت فيك الصديق الصدوق الذى يركن إليه ويعتمد عليه . وسأقص عليك اليوم ما حبسته عن أقرب الأهل وأقدم الصحاب .

والواقع أن محمودا الشاعر كان فى غير ثوبه فانه لم يكن

هكذا متزمتا متبلدا على الدوام كما كان فى هذه الأيام يبدو ولكنه رأى أن يعتصم بالحد الصارم والتوقر الحازم لما رأى أن ميله الفطرى للدعابة والمرح قد أوقعه فى مشاكل لاعداد لها ولا يزال يلقى به كل يوم فى عناء جديد فرأى أن يلوذ بالحذر والسكون وأن يتحدى حكمه القرون فيثبت أن التطبع يغلب الطبع الأصيل .

ولبث أياما وهو راض عن سكونه وحذره مغتبط بمضاء عزيمته ونفاذ إرادته ضاحك من القول المأثور الذى تناقلته السنة الضعفاء والمتخاذلين فانك لتراه جالسا إلى مكتبه ومن حوله إخوانه يحيونه ويجاملونه وهو بينهم ساكن هادىء تثور به النكتة فيكبتها وتغالبه فيبتلعها فيقبل عليه زميله هذا من غرفة أخرى وعلى وجهه ابتسامة عريضة وفى مؤخرة عينه بريق عجيب لقد جاء يرحب به ويسلم عليه ولكنه لم يدع يده بعد المصافحة إلا بعد أن أوسعها لثما وتقبيلا ثم قدم نفسه قائلا . أنا خدامك حسين كاتب القيودات جئت أتشرف بمعرفتك .

فأجاب محمود . بل أنه شرف عظيم لى . تفضل استرح يابك .

ولكن حسينا لم يتفضل ولم يسترح بل لبث واقفا يداعب محمودا ومحمود يريد على دعابته بابتسامة من لايريد الابتسام

وكادت لحاجة حسين فى الدعابة والحاجة فى التهريج أن تستدرجا محمودا إلى الدعابة وتستحفاه إلى المزاح لولا أن كان بينه وبين الدعابة والمزاح ظلال كثيفة من الآلام والاسقام عليه أن يجتازها إذا أراد إليهما سبيلا وهيهات لمن بلغ هذه الظلال أن ينال من السرور أيسر نصيب .

ومع ذلك فهو يلقى على صاحبه نظرة المستملح القرير ويأخذ فى مجاملته ولكنه لا يحسن المجاملة التقليدية ولا يزال يعزى نفسه عن هذا النقص يقول شكسبير فى يوليوس قيصر « أن الافراط فى المجاملة دليل الرياء أما البساطة والثقة فلا رياء فيهما ولا خداع » ولولا هذا النقص الذى يريد أن يراه كما لا لكان ذا شأن فى حياة الوظائف ودوائر الموظفين .

وهو يقارن بينه وبين صاحبه ويعجب من هذا التهالك على المجاملة والملق ومن تقبيل يده وما كان من الأولياء أو الصالحين .

ويحيره أكثر من ذلك ابتسامة فى عين صاحبه تترقرقُ فيها معان شتى وتمتزج فيها لمحات وسمات متباينات يختلط فيها السرور والغبطة والخداع والنفاق وكان الذى يميل صاحبنا إلى اعتقاده أن عنصر الخداع هو أصح ما تفرسه من معان فقد كان إيمانه بما قرأ فى شكسبير من علاقة بين فرط المجاملة وفرط الخداع لا يرقى اليه شك ولا تسموا اليه شبهة .

ويسترسل الحديث بين الصاحبين فيومض فى عين حسين وهو يبتسم معنى جديد فيه سمة التفاهة وجموع البلاهة .

وأن حسينا على ضخامته ورخاوته وطوله الفارع برغم السمن والرخاوة لصاحب دعابة ومزاح وصاحب قهقهة صاخبة يعقب بها على كل ما يقول أو يسمع وفى أثناء هذه القهقهة تنتفخ وجنتاه وتلتمع عيناه فى وميض عجيب .

ويهم بالانصراف بعد حديث السلام ويمد محمود يده اليه مسلما فيقبلها وينصرف مشكورا . ويخرج حسين ويبقى ما أشاع فى الحجرة من ضحك صاخب اشترك فيه الجميع إلا صاحبنا المتأمل الواجم . لم تحفزهم إلى الضحك دعابة رائعة أو فكاهة بارعة ولكنه ضحك حسين واصطخابة برغم تفاهة أسبابه قد حملهم على المشاركة فى الضحك والتهريج .

ولكن هل استطاع هذا المصطخب أن يحمل محمودا على الدعابة والتفكه ؟ كلا فان للدعابة عليه من الأيادى مالا سبيل إلى نسيانه .

وهل ينسى هذا الاسم الذى أطلقه على (سمير بك التابعى) مدير القسم على سبيل الدعابة فسرعان ما تسامع به المدير لا عطلا من خيال ولا خلوا من شرح وتأويل . لقد سماه (أبا التوابع والزوابع) تأثرا باسم كتاب لأديب أندلسى . ولم يكن يقصد غير الدعابة .

أما أبناء الحلال فقد فهموا ما يضمر وتكشفت لهم هذه التسمية عن معان جمة فالتوابع هم أصفياء المدير وأتباعه يتهمهم محمود بالسعاية والوشاية وإلا فلم أطلق عليه (ابا التوابع) وما مزيته على زملائه من المديرين والرؤساء حتى يختص دونهم بهذا اللقب ؟ أنها وقاحة وكنود .

ثم هو يتهكم على رئيسه ويسميه (أبا الزوابع) فهل كان شديدا عليه بغير الحق ؟ فانما هكذا يكون الرؤساء وهكذا يكون البطش بالخبثاء الملاعين .

ووجد هذا التفسير سبيله إلى قلب المدير فاسى واسف ولم يلم إلا نفسه فهو الذى رقاه رئيسا لقلم بالاسكندرية . متوسما فيه الكفاءة مخدوعا بما أبدى من طيبة وإخلاص وما دار بخلده أنه يهزأ به ويتهكم عليه ويتهمه أشنع التهم ويقول أن له توابع وزوابع .

ومحمود الشاب المرح الطروب برغم كل ما يبدو عليه الآن من تزمت وجمود لا يدرى أن للتسمية مدلولا لأنه لم يقصد إلى دلالة ولم يرمز إلى معنى ولا علم ببراعة المفسرين فى القرن العشرين . فانما هو اسم لشخص أعاد إلى ذاكرته اسم كتاب ووجد فى التسمية بعض الطرافة . ولم يشعر بأنها قد حملت من المعنى ما لا يريد إلا بعد أن نفذ السهم وأعيد إلى الديوان العام كاتبا كما كان قبل الترقية وسحبت منه النعمة التى

لم يقدرها ولم يعرف جميل صانعها.

ومع ذلك فهل انتهى الحادث بسلام عندهذا الحد، ؟ كلا فقد كان له توابع وزوابع لا محل لها الآن فقد طغى عليها وعلى هواجسها فى هذه اللحظات ذلك الوجه الكبير المنتفخ وهاتان العينان — الباسمتان تحيرانه وتغريانه بالدعابة والمزاح . . . ولكن أما يزال صاحب عزم ومضاء. وهل تغلبه أكذوبة الضعفاء والمتخاذلين.

يا عجبا : هذا المسلك العجيب فى التحية والسلام ما دلالته وهذا التهافت على مرضاة زميل لا يضر ولا ينفع ترى ماذا يكون لرئيس يضر وينفع.

جالت هذه الخواطر وأشباهها فى ذهن محمود ولكن المشاغل لم تمهله طويلا فى هذه التأملات فسرعان ما طواه العمل واستأثر به فاذا هو يضطرب فيما يضطرب فيه الموظفون من عمل آلى لا ينتهى إلى أمد ولا يقف عند حد.

وتدق الساعة دقتين فينصرف الموظفون وينصرف محمود وهو يفكر فى أمر صاحبه وفى قدرته على اصطناع التزمت والوقار وفى توفيقه هكذا فى أبدال خلق بخلق ومزاج بمزاج وليس هذا من هين الأمور.

وما يكاد يمضى فى الطريق بضع خطوات حتى يدهمه حسين كأنما كان يترصده إلى أين يا أستاذ ؟

إلى المطعم لتناول الغداء .

وهل لديك ما يمنعك من اصطحابي ؟

كلا فانه شرف عظيم لي يا حسين بك .

وأين تتناول طعامك ؟

في مطعم (كذا) قرب ميدان الملكة فريدة .

توافق عجيب في الأذواق . لقد كنت ذاهبا إلى نفس المكان فلننتظر الترام .

وطال انتظارهما لترام نبيل أصيل لم يغره أقبال الزمن بازدراء — المحطات الاختيارية ولكن على غير جدوى فقد كانت مركبات الترام تمرق من أمامهما وتدعهما في غير رحمة يحترقان تحت وهج الشمس ويختنقان بريح السموم فما أبعد الفرق بين ترام الرمل ومحطاته وبين هذه المركبات والمحطات في عاصمة الديار .

ها نحن أولاء نرى الصديقين قد يئسا بعد أن أعياهما الانتظار وأمضهما الجوع فاقترح محمود أن يسيرا على الأقدام كما كان يحب الفيلسوف روسو أن يفعل فسرعان ما وافقه حسين وهو يقول . لم نشبه جان جاك روسو إلا في هـــذا واردفها بضحكة صاخبة أجاب عليها محمود بابتسامة شاحبة وبدأ بينهما حديث وهما يسيران .

حسين : أجبني في صراحة يا أستاذ . هل أنت مستقيم ؟

محمود : طبعا .

ليت شعرى هل كان ينتظر جوابا غير هذا على سؤال كهذا ؟

— ولكنه لا ييأس بل يعيد محاولته — يأستاذ كن صريحا فانه لا يعقل أن شابا موظفا أعزب فى القاهرة يكون معصوما .

— لم أدع العصمة ولكنى جديد فى القاهرة كما تعلم .

— فاشرق وجهه وهو يقول . إذا لم تكن معصوما فى سواها .

ولمح محمود فى هذه الأسئلة والاصرار عليها وفى أشرافه وجه حسين لما أحسن بأنه أخمة لمح روحا شريره فما هى إلا أن يقول شيئا حتى يكون لدى المدير فى الصباح الباكر موشى الحاشية ، منمق الديباجة هدية من المرءوس الصديق إلى الرئيس المصدوق .

فعول على أن يمضى فى الحذر إلى آخر مداه وإلا يتورط فى الاعتراف بشىء وعلى أن يشترى ولا يبيع كما يقول خبثاء الموظفين فقال فى رده على حسين . أن شدة الحياء كثيرا ما تفسد طيبات الحياة فتجعل المرء مستقيما برغمه وأن كاد يكره الاستقامة فى قرارة نفسه .

فأجابه حسين . دعك من هذه السفسطة وتكلم فى صراحة .

— أظنك تسلم معى أن الموظف الأعزب الذى يصطحب أمه أينما تنتقل لا تستغرب منه الاستقامة كل هذا الاستغراب .

— وماذا يحملك على اصطحابها .

— لا شىء غير إقبالى على الجد وأعراضى عن العبث .

— إذن قد اتفقنا على إلا نتفق .

وحزن محمود لانقطاع الحديث على هذا النحو وحرمانه من معرفة هذا السر الذى حبس عن أقدم الصحاب وأقرب الأهل .

ولماذا لا نتفق ؟

لأنى أفسد أهل الأرض طرا وأنت مستقيم كما تقول .

ولكنى مستقيم برغمى كما ذكرت . مكره لا بطل . أو قصر ذيل كما يقولون فلولا حياتى لما كنت أفسد أهل الأرض .

— إذن الأفكار متقاربة ؟

— تحت العجز والزيادة (مشيرا إلى نفسه ثم إلى حسين) وبدت على حسين علامات الاطمئنان إلى صاحبه ولكنه أراد قبل أن يمضى فى تفصيل ما أجمل من أسراره أن يستوضح بعض نواحى صاحبه ليطمئن إلى صدقه ومتانة خلقه .

— هل أنت أصيل ؟

— نوعا ما . فانا ابن أسرة متوسطة ولكنها إلى كرم الأصل أميل .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أن أهلى من أوساط الناس . زراع وتجار وموظفون

— أن لهجتك فى الحديث ياستاذ تنبىء عن الصراحة والصدق فأنت أهل للثقة . خدامك حسين أكبر موظفى وزارة الأوقاف دخلا من غير الوظيفة . أن أعجبك كلامى فصدقه وإلا فتلقه باحدى أذنيك وألقه من الأذن الأخرى جدى لأبى كان محافظا للقاهرة وجدى لأمى كان من وزراء تركيا وهنا أقبل عامل المطعم بألوان الطعام وقد سمع آخر لفظة من حسين فالتفت إلى محمود وقال . حسين بك جده كان وزيرا عندنا فى تركيا . أنا أيضا تركى ولذا أحب حسين بك كثيرا . فناوله حسين قطعة من ذوات الخمسة قروش انصرف بها جذلا مسرورا وأقبل الصاحبان على الطعام إقبالا مشكورا لم يتخلله إلا بعض نكات أراد بها حسين أن يزيل عن صاحبه ما ألم به من خزى وعار لما وجد البون شاسعا والشقة بعيدة بينه وبين صاحبه الذى لم يفهمه لأول وهلة وعلم أنه ليس صاحب فراسة كما كان يحب أن يخدع نفسه .

فقد حسب حسينا دساسا وضيعا فاذا هو موسر نبيل وحسبه من أهل الذلة والصغار فاذا هو من السادة الكبار .

ويعيد بصره إلى صاحبه كما مر بنا فيقرأ ومضة عينيه

كأنها كتاب مفتوح فهى سمة الخلق الكريم وسعة الفهم للحياة والأحياء . ومضه لم يظلمها عناء ولا غام عليها هم .

وما تكاد لهفة محمود على الطعام تخف حتى تعاوده شهوة الاستماع فيستدرج حسينا إلى الحديث ولكنه يحذر أن يبدى تلهفا قد يوحى إلى حسين بالتحفظ . . لذا فاننا نراه برغم تحرقه إلى معرفة هذا السر الذى حبس عن أقرب الأهل وأقدم الصحب لا يتعجل حسينا بل أنه ليسمح للحديث أن ينتقل بين السمك والأرز واللحم والشحم فقد كان محمود كلفا بالأولين من أثر مقامه بالاسكندرية وكان حسين مولعا بالشحم واللحم ويرى ما دونهما لغوا وعبثا .

ويتناول كوبا من الماء يشربه فيقول له حسين . مصوا الماء مصا ولا تعبوه عبا فيشكره محمود على هذه النصيحة الذهبيه ويعد باتباعها مستقبلا .

والآن إلى أين تذهب ؟ .

— أرى أن تذهب إلى حديقة الحيوان فاليوم يوم الأحد والحديقة اليوم أزهى ما تكون .

— هيا بنا

ويجدان تراما ويجلسان فى غير جلبة ولا عناء فيقول حسين بعد أن استويا فى مقعد بالدرجة الأولى .

— سأنبئك الآن بقصة حياتى كما وعدتك . ولك

أذنان فاذا شئت ألقيت من الثانية ما تلقيت بالأولى

لقد طردنى والداى وهما من علمت وأنا لم أزل فى سن العاشرة لأنى كنت شيطانا مريدا كلفا بالمخازى والمخاطر فلم أنعم بما ينعم به أولاد — الذوات . ولا أزال حتى اليوم أكابد مما كان فى مشرق شبابى ففى العام الماضى اضطررت أن أبيع بختين بحريين وسيارتين فاخرتين .

— أكنت مدينا ؟

— كلا

— فلماذا إذن تعقد هذه الصفقات فى وقت لا أمان فيه على النقد والعدو على الأبواب ؟

— يا سيدى إذا عرف السبب بطل العجب . هل بنا ان ننزل فقد بلغنا حديقة الحيوان واستأنف حديثه بعد أن جاوزا باب الحديقة وسارا بين الظلال الوارفة والطيور المغردة الهاتفة وأسراب الغيد ومواكب الأطفال فى أثواب بهيجة خلابة الألوان .

طارت اليهما طفلة فى ثوب أبيض جميل وفى يدها حبل قائلة .

— أمسكا هذا الحبل كى أنط

— وما اسمك

— اسمى سوسو على درويش وبابا الدكتور على درويش .

— نحن نعرفك ونعرف أباك

— ما اسمه

— الدكتور على درويش

— حسنا هل هو يولد رجالا أم نساء

— رجالا

فصاحت فى لهجة المنتصر « دا بتاع ستات دا بتاع ستات » .

ولما استيأست منهما ذهبت إلى غيرها عله يمسك لها الحبل . وكانت طفلة فاتنة مسلية . جعلت محمودا يسأل صاحبه عند انصرافها .

— ألا تتزوج ياحسين حتى تنجب مثل هذه الطفلة ؟

— كلا فانا أكره السيدات . ولا أحت إلا العذارى فى سن الثانية عشرة — سن محكمة الجنايات .

— ولكنك لم تكمل قصة بيع البختين والسيارتين فما السبب حتى يبطل العجب .

— خدامك حسين الذى ترى أمامك مهملا فى الزى منصرفا عن التانق هو أقرب الناس الى قلوب العذارى وغازيها من أيسر السبل وأقربها . أنا لست مغرورا ولست أكره مع ذلك أن أتهم بالغرور أصحبنى فى إحدى جولاتك فسترى البرهان . وليس الخبر كالعيان . لقد هامت بى يوما

فتاة شائقة من سلالة تركية وقد رأيتها أول مرة عند خالتى بالزمالك وما كدت أجلس إلى الضيوف وأحييهم وأحادثهم حتى وجدت أنى أحظى من التفات فيفى واهتمامها بأوفر نصيب .

وانصرف الضيوف ولبثت مع خالتى أتكلف السرور بخلوتى بمن بقيت لنا من زمن مضى بعزه ومجده وقداسته .

ومرت أيام وإذا الساعى ينبئنى أن فتاة تريد لقائى فوجدتها هى بلحمها ودمها ولكنها تكابد أزمة نفسية وتعانى هما دفينا . فسرت فى أوصالى قشعريرة حبيبة ولكنى تمالكت أن أقول لها . خير إن شاء الله .

فأجابت فى لهجة عازمة ولكنها حائرة قاسية ولكنها مشفقة .

أنى غير مختارة فقد قضى على أن أعيش معك . ستقول أنى حمقاء وأنا أقول بل مجنونة لا حمقاء ولكن الزمام أفلت من يدى .

فما رأيك . هل تكره أن أكون معك .

— من ذا يكره ولكن لكن للموقف أكثر من وجه واحد فتدبرى الأمر مليا .

فترقرقت دمعتان فى عينيها النجلاوين وبدت عليها حيرة مريرة إلا ما أقسى قلوب الرجال وما أقدرهم على تمثيل دور

الغرام والهيام فاذا خدعت الفريسة ووقعت فى الفخ فالويل لها من جفاف الطبع و نضوب العاطفة لقد كانت تتوقع أن لقاءها سيكون أسعد مفجأة فى حياتى . وأنها تزف لى الأحلام وما يجاوز الأحلام .

ـــ تدبرى ؟ ماذا تعنى .

قالتها حائرة فسالت الدمعتـــان وبدت فى حزن فاتن واستأنفت ـــ حديثها قائلة ، إذن أنتحر فما أطيق الحياة من غيرك . فما لبثت قواى أن خارت وما لبث عزمى أن تصدع وأسلمت أمرى للمقادير وقلت لها . شكراً يافيفى . ستعيشين معى .

فأشرق وجهها ونطقت أساريره وقالت . شكراً ياحبيبى على هذه التضحية .

ـــ أو تضحية هى ؟ أنها السعادة كل السعادة أن أنعم بقربك قلتها وأنا أرى نفسى فى مأزق لا أعرف له أولا من آخر .

فى هذا الموقف الحرج كنت حازماً كل الحزم فاستدعيت سائق اليخت يالمسرة وطلبت إليه أن يبحر باليخت إلى قرب القناطر الخيرية . بعد أن يطرد الخفيرين فقبل بعد تردد . وأريته الفتاة وقلت له . وهذه الفتاة ستوافيك فى مستقرك الجديد وستقيم معى فصن هذا السر واعلم أنه إذا علم شىء عنه

فالمسئولية واقعة عليك وحدك لأنه لا يعلمه غيرك وغيرى وعندئذ ستدفع الثمن غاليا وأشرت إلى جيب كنت أحمل فيه مسدسا .

— سرك محفوظ يا سعادة البك . وهل هذا أول سر تأمنى عليه ؟

— كلا فسر على بركة الله .

وما كاد ميعاد العمل ينتهى حتى وجدتنى فى سيارتى أنهب الأرض إلى مستقر اليخت ولبثنا فى هذا المنعزل أربعة أعوام وكأنما جلتها الخلوة أو كأنما الماء والسماء قد أسبغا عليها شعراً وفنا وجمالا ورواء وما زادها تعاقب الأيام إلا تألقا وتآنقا وفتنة ونضارة .

وفى هذا المنعزل ، بعيداً عن ضوضاء المدينة وشرورها وعن عذل العاذلين وكيد الكائدين ونصح الناصحين حينا كما يشتهى المحبون أن يحبوا . . . فى جو من الحب الخالد يترجم عنه خرير الماء وحنين الطير وحفيف الشجر تحت جلوة القمر وفى كل يوم تنشر الصحف خبر اختفاء الفتاة فنعبره عبوراً وكأنه يهم قوما آخرين ليسوا فى هذه السماء الشماء والامتياز الفائق على أهل الأرض .

لقد عشنا أربعة أعوام فى عالم الاحلام وكنا نستطيع استبقاء النعيم واستدامة الحلم .

ولكن المرء إذا اكتملت له النعمى فتش جاهداً عن الهموم كأنما لتتضاعف حسرته فيما بعد ولا يلومن إلا نفسه.

ففى العام الرابع من أعوام اليخت كنت إذا أقبلت على غير انتظار كفكفت دموعها بسرعة وابتسمت ابتسامة متكلفة فبدأت الشكوك تساورنى. هذه الدموع التى تنهمر فى غيبتى لمن يا ترى ؟

وذات مساء قلت لها: لم يكن لأحدنا سر يحجبه عن صاحبه فهل لى أن أسأل عن سر هذه الدموع ؟

تفضل فهذه الصحيفة تنبئك بسر الدموع.

فقرأت فى باب الاجتماعيات هذا النبأ. اعتكف اللواء (فلان) باشا لمرض أصابه منذ يومين. ولا يزال العظماء والكبراء يزورونه للاطمئنان على صحته. ونحن نتمنى له شفاء عاجلا وإبلالا سريعا.

لم يكن انهمار الدموع لغريم. إذاً كما كنت أخشى بل لأب رحيم له على ابنته حقوق الأبوة على الأبناء.

طمأننى هذا الخاطر شيئا ما ولكن ما حيلتى فى المأزق الجديد ؟ إنها لعازمة مصممة على أن تعوده وتطمئن عليه وبذلت جهد الجبابرة لاثنيها عن عزمها وأبصرها بخطورة ما هى مقدمة عليه ولكن حالتها النفسية لم تكن تسمح بتفاهم أو اقتناع فهى مصممة عازمة كما عزمت وصممت منذ خمس

سنوات . حماقة لا تقف عند حد وتهور لا ينتهى إلى غاية .

قضى الأمر ولا بد أن تذهب أردت أو كرهت ولكن هذا سيكشف عن الجريمة وسيقتادنى إلى محكمة الجنايات وليمان طره . . . شبحان ترامیا لى من خلال هذا اليأس الذى غام على خاطرى وأنا مسوق اليهما فى عاصفة هوجاء من الحماقة والتهور .

ولكن الشدائد هى محك الرجولة والقوة . والخطر العظيم لا يدرأه إلا الخلق العظيم ففى وسط هذه الأنواء والعواصف فكرت فى هدوء رزين ، فلم يلبث الضباب أن تبدد ، ولم تلبث العاصفة أن هدأت وإذا هى تعود إلى آلها كما تشتهى وأذا بى أتجنب الكارثة التى كانت تتمثل فى الشبحين المخيفين وعادت وعدت وأسدل الستار على ليالى اليخت ولكنها ظلت فى حياتى زادا روحيا استروح بذكراه وأتغذى بخياله وزال الشبحان وإن كان زوالهما إلى حين .

— ولكنك لم تحدثنى بالطريقة التى سلكتها حتى نجوت

الطريقة كانت كما بلى : أوثقت رجليها وذراعيها بحبل وعصبت عينيها وسرت بها إلى ضاحية نائية فى الغسق وهناك فى مكان مهجور أنزلتها من السيارة فى رفق ومرقت فى سرعة فلما أن اطمأنت إلى نجاتى واختفى صوت نفير السيارة صرخت صراخاً متصلا فاذا هرع اليها الناس والشرطة قالت أنها بنت اللواء (فلان) باشا اختطفت من مدة طويلة وعصبت

عيناها طول هذه المدة لذا فهى لم تر أحداً ولا تعرف مع من كانت وما كدت أبلغ الجراج حتى وجدتنى عائداً برغمى إلى هذه الضاحية لأشاهد ما فاتنى من فصول هذه القصة ولأطمئن إلى إجابتها .

وهنالك وجدتها ومن حولها بعض البوابين وضابط يسألها وهى تجيب والضابط مسرور قرير بأن نجاة كريمة الباشا جاءت على يديه وبأنه كان صاحب البشرى اليه . فما يكاد يكمل المحضر حتى يدعوها للانتظار فى غرفته ريثما يبلغ الخبر إلى سعادة الباشا . وما يكاد يبلغه حتى يطير إلى مقر البوليس وكأن مرضه لم يكن عضالا وكأن بعض الأطباء لم يكونوا قد يئسوا من شفائه .

لقد أتى فى سيارته وتعرف على ابنته فعاد معا فى سليما وما هى إلا أسابيع حتى زفت إلى ضابط بالجيش من مرؤسى أبيها وأنت تعلم تهافت المرءوسين على مصاهرة الرؤساء .

وهكذا انتهت معالم الجريمة ونجوت من الشبحين الرهيبين ومضى عام وبعض عام وأنا فى أمن ودعه وطمأنينة ممتعة .

وأقبلت ذات صباح على الجراج فرأيت ببابه فتاة تنتظر . عرفتها ولكنى لا أعرف ماذا أتى بها إلى هذا المكان .

— سعيدة — خير إن شاء الله

— لقد مات زوجى

ـ البقية فى حياتك ولكنك لست حزينة .

ـ لأول مرة فى حياتى لم يحزنى الموت كيف حالك ـ أنسيتنا

ـ وكيف أنساك ؟

ـ أنسيت ليالى اليخت ؟

ـ وهل تنسى ليالى اليخت ؟

ـ وما رأيك فى تكراها عوداعلى بدء .

فكرت وتدبرت وأقدمت ولكنى لم ألبث أن أحجمت فقد كنت فى هـــذه الأيام أنعم الناس بالا وأرفههم حالا وكنت أعيد ليالى ألف ليلة مع أربعين من الغيد الفواتين .

وقلبى بطبيعته لا يعلق به حب وإن كان ينشد المتعة أبدا

فكرت فى هذه الفتاة الطائشة التى حملتنى فى المغامرة إلى أبعد الحدود ثم تهورت واندفعت وكادت بتهورها واندفاعها تحطم حياتى تحطيما لإصلاح بعده .

إنها تريد تكرار المأساة . . . . . ولكن هيهات ثم هيهات وهل كنت مجنونا حتى أكشف ما استتر وأنكأ ما التأم فأجبتها قائلا : أمهلينى ريثما أرتب حياتى وأعد عدتى وفى خلال هذا الشهر بعت اليختين البحريين لأنها تعرفهما وخشيت أن تحتلهما وتأبى مغادرتهما فتكشف بحماقتها ما كان من أمر المغامرة وبعت السيارتين كى تنقطع صلتى بالجراح ولا تعرف لى مستقرا .

— ومسكنك ألا تعرفه . ؟

— كلا فليس لى مسكن ولكنى اتنقل بين فنادق القاهرة ولا يعلم أحد مستقرى .

— ومقر العمل — ألا تعرفه ؟

— لقد استخدمت دعاة من السعاة والبوابين والخدم أفهموها أنى نقلت إلى بور سعيد . ها هى ذى احدى مغامراتى فهل تقص علينا طرفا من مغامراتك .

— مغامراتى ؟ وهل لى مغامرات تستحق هذا الاسم أو أن تذكر بعد هذه المغامرة الكبرى التى تزرى بخيال الروائيين فى أعجب الروايات .

— حدثنى كما حدثتك أليس لك مغامرات .

فيصغر محمود ويصغر ثم يذوب خجلا أمام صديقه الذى هيأ له المال والثراء سبيل المغامرة وفهم الحياة فيجيب .

لو كان لى مغامرة لحدثتك بها ولكان هذا فخرا لى .

فيبتسم حسين ابتســـامة فيها الرضى والأمن والصفح والمغفرة ويقول لست أريد إحراجك أو حملك على ما لا تريد .

ويبدو فى مؤخرة عينيه ذلك الوميض الذى حيره أول الأمر ولكنه لا يحيره الآن فهو البشاشة النفسية والنورانية القلبية اللتان تسعتان كل شىء وتصفحان عن كل شىء .

ثم قال حسين .

الساعة الآن السادسة وأنى مرتبط بموعد لزيارة أقارب هنا فى الدقى .

— إذن تفضل فأنا ذاهب إلى الفندق لاستريح شيئا ما ولكنك لم تحدثنى بقصة الأربعين غادة .

— إلى فرصة أخرى إن شاء الله .

وهكذا ذهب محمود إلى الفندق وحيدا وهو يفكر فى هذا الصديق الذى ساقته إليـــه الظروف السعيدة . صديق يشكو من تضخم النقد فى خزائنه ولن يضن على صديقه بقرض إذا أحوجته الظروف .

ولكن شيئا خفيا جعل محمودا يرتاب فيما سمع ويحار بين التصديق والتكذيب .

الفصل الثانى

أربعون غادة

وكان نقل محمود إلى القاهرة وعودته كاتبا كما كان مثيرة لآلامه حتى رأيناه يعزم على تغيير خلقه وتبديل مزاجه

ولكن هذا النقل كان أول الغيث الذى يوشك أن ينهمر

لقد تساءل وهو فى ألمه وضيقه كيف يصبر على غطرسة الرؤساء ودسائس الزملاء الذين يحيطون بالرئيس حتى لا يدعون له عينا يبصر بها ولا أذنا يسمع بها بل يكونون أعينه وآذانه ، أعينا مغرضة وآذانا مريبة .

وإذا كان وهو الفقير إلى وجه الله تعالى يعجب كيف يصبر على هذه الحال فما أحراه أن يعجب كيف يصبر حسين الملونير . إن هذه الوظائف الصغيرة قد خلقت للفقراء من أمثالنا لا لأصحاب الثراء الواسع والجاه العريض .

ولكن لماذا ينظر إلى الناس من زاويته ووجهه نظرة وطبيعة مزاجه فربما كان لحسين وجهه نظر فى البقاء فى هذه الوظيفة الصغيرة ولله فى خلقه شئون . وبينما هذه الأفكار تتوارد على ذهن محمود إذ أقبل الساعى يقول له .

تفضل كلم سعادة اليك .

وذهب وقابل سعادة اليك وعاد فى يده ورقة حمراء يقال لها أمر خصم وتعجب إذ ترى محمودا رجل الجد والدأب يعاقب لاهمال أو تقصير فهو مجد دائما مقدر مسئوليته أبدا محس بواجبه أعمق الاحساس مخلص لعمله أتم إخلاص ولكن الاخلاص فى القول والعمل لايراه الرؤساء ويحسبون اخلاصا ما هو غش وخداع ومجاملة كاذبة .

— ما سبب هذه العقوبة ؟

سأل رئيسه هذا السؤال فأجابه . أنك أخليت طرفك من الاسكندرية يوم ١٥ ولم تتسلم عملك هنا إلا يوم ١٧ فأين كنت فى يوم ١٦ .

— كنت هنا .

— أهذا صحيح ؟ ونادى احد الموظفين وسأله . هل حضر محمود افندى يوم ١٦

أنه حضر فى يوم ١٦ فى آخر النهار قبيل انتهاء موعد العمل فاعتبر غائبا — وكان محمود يستطيع أن يجيب صادقا بأنه كان يسلم عمله لخلفه حتى صبيحة هذا اليوم ولكنه أحس بنفسه تضيق وصبره ينفد ولم يكن يجيد الرجاء والاستعطاف . فلما قال له الرئيس على العموم لا فائدة فالمسألة منتهية وقد أمضيت بالعلم .

أجابه قائلا . أمر تافه على كل حال . يوم لا يهم

فقال الرئيس . تعيش وتأخذ غيره

وينتهى موعد العمل ويذهب إلى المطعم لتناول الغداء وبعد أن يتناول طعامه يتفقد حافظة نقوده فلا يجدها .

فتبدو عليه الحيرة والاضطراب ثم يتجه إلى صاحب المطعم وساعته فى يده ويقول له : لقد نسيت حافظة نقودى فتفضل هذه ساعتى أبقها عندك ريثما أحضر لك النقود .

فيجيب صاحب المطعم . آخذ الساعة ؟ عيب ! إن لنا فراسة فى الشخص حضرتك يبدو عليك أنك رجل محترم صادق مؤدب .

— شكرا جزيلا

— مع ألف سلامة يا سعادة إليك .

لقد فهمه صاحب المطعم من نظرة عابرة

عرف الرجل أنه ليس صاحب خديعة واحتيال فقد كان الصدق والصراحة المهذبة علمين عليه تكاد تنطق بهما ملامحة .

ومر بخاطره حديث الرئيس اليه فى غير لياقة ولا مجاملة دون أن يفهم من تجارب طويلة ما فهم صاحب المطعم من نظره عابرة .

ذهب من توه الى صندوق التوفير وسحب مبلغا كان له

وعاد من توه الى المطعم فدفع ما عليه شاكرا

ولكنه فى المساء يخشى مما أصابه . ترى هل أصابه مس ؟ لقد انطلق الى الشارع فى ضيق وسخط عقب خلاف مع عامل الفندق فاندفع الى حيث لا يعلم يطاوع رجليه ولا تطاوعه رجلاه . وخشى أن يستفحل الخطب فبذل جهدا جبارا حتى استطاع أن أن يحمل نفسه الى متجر لبعض أصدقائه وهناك جلس . وتحادث وضحك وكانت فكاهته بارعة وسخريته لاذعة وكاد لا ينجو منهما شىء وقع تحت حسه فى هذه اللحظات

كان يظن من يراه أنه رجل المزاح والاستهتار الذى لم يعرف جد الحياة ولا مرارة الهم . وكان من يراه فى صدر النهار يرى فيه الجاد المتزمت الذى استغلق عن الفكاهة والدعابة وكل ما يطرب منه الناس مع هؤلاء الصحب ترك نفسه على سجيتها فأعجب وأطرب وأزال عن نفسه ما غشى عليها من ملل وسآمة واستعاد سلطته على أوصاله وعاد التفاهم بينه وبين جوارحه وساد الانسجام وتبددت الأوهام . وضحك أصحابه ملء صدورهم وأفواههم ورجوه أن يوافيهم بين الآن والآخر ليؤنسهم ويسليهم ويغذيهم من قلبه السعيد ونفسه المرحة إنه المحدث الذى يعجب الأصدقاء ولكنه لا يعجب الرؤساء

ليس متلصفا ولا فظا معهم ولكنه لا يلقاهم كثيراً لأنه لا يهنأ بلحظة يشعر فيها أنه يتلقى توجيهات وإرشادات لا حكمة

فيها ولا سداد وهو بعد لا يؤمن أن لرئيسه عليه واجب المنادمة والترفية وهو بعد كل هذا شاب جم الحياء خاصة مع من هو أكبر منه سناً أو مقاماً ولكنة يبلغ ذروة سعادته وهو بين أصدقائه الأقدمين يطلق النكات البارعات ويسعد من حوله وهو لا يخشى دسا ولا سوء تأويل إنه لا يترامى على أقدام الرئيس ولا يلقاه إلا فى مناسبة عمل فكان الواشى يشى به وهو مطمئن ويحدث من الجفوة بينه وبين الرئيس ما طاوعته نفسه على الدس والاختلاق ولم يحس أن زميلا شاركه ألمه فى هذا الصباح إلا واحداً نصحه فى جد وإذا كان لم يعمل بنصيحته فقد قدر له كرم شعوره ورقيق مجاملته ذلك الزميل هو حسين

ويعود محمود إلى عمله فى اليوم التالى وقد جلا قلبه وغسل همه — ليسمع منه حديث العيد الأربعين .

ولكن حسينا يقول له. لقد نقلت .

— إلى أين نقلوك ؟

قالها وهو يقدر أنهم نقلوه إلى بنها أو طنطا أو أسيوط على أسوأ الفروض .

ولكن الرد كان ، إلى مكان ما بالاطلنطى .

— أو تهذى ؟

— أهذى — تفضل

وسلمه شهادة طبية مهورة بإمضاء طبيب كبير قرأها

فعجب لما يقرأ .

أقرر أنى أجريت الكشف الطبى على حضرة حسين أفندى مسعود فوجدت أن صحته جيدة وهى تسمح له بقيادة وابور بخارى بحرى .

الدكتور . فلان

— مدهش ولماذا استخرجت هذه الشهادة .

— لأن المفوضية الأمريكية طلبتها منى استيفاء لأوراقى لديها وتمهيداً لتعيينى رباناً لبعض السفن الأمريكية بالمحيط الأطلنطى . . .

— لو أنى كنت أنانيا لتمنيت ألا يتم لك ما تريد . لأننا لا نطيق بعدك ياسحس .

— أنا شاكر لك عواطفك نحو خدامك حسين الذى سيظل خدامك فى كل زمان ومكان .

— عفوا . ولكن أين تعلمت قيادة الوابورات ؟

— فى انجلترا لما كنت أدرس فن الطيران .

— وهل درست فن الطيران ؟

— نعم وكنت كبير المهندسين فى شركة الطيران الكبرى بجنوب إفريقيا وهى شركة انجليزية وكان تحت امرتى مهندسو الطيران من الانجليز فأتمر الجميع بى فتركت لهم العمل غير آسف مفضلا أن أخدم بلادى بملاليم عن غيرها بملايين

وفى يوم الخميس الماضى قابلنى مدير الشركة بالقاهرة وقال لى لقد اقتنعت بأنك كنت محقاً وكنا مبطلين فإن سقوط طائرة عزيز المصرى باشا كان فصل الخطاب .

فقال محمود . وكيف كان ذلك ؟

فأجابه حسين : زعموا أن أصحاب الشركة لما رأوا حسينا يأمر بأن تئز الطائرة أزيزا طويلا وهى بعد على أرض المطار حسبوا ذلك إسرافاً فى البنزين فرجوا منه الكف عن هذه الخطة اقتصادا للبنزين وعبثاً حاول أن يقنعهم بفساد فكرتهم وبأن الطائرة إذا ارتفعت قبل أن تسخن آلاتها إلى درجة خاصة كانت فى خطر من أن تفسد بعض أنابيبها فيؤدى هذا إلى سقوط الطائرة . . . . . وهذا هو الذى أدى إلى سقوط طائرة عزيز المصرى .

وحاول المدير أن يعيد حسينا إلى خدمة الشركة وعرض عليه شروطا سخية جدا ولكنه أصر على الرفض .

وأعجب حسين بنفسه وقد تحدث بهذه الذلاقة والسهولة فابتسم ابتسامة عريضة .

تكلف محمود الابتسام لها تكلفا .

لم يكن يطيب لمحمود هذا النوع من الحديث الذى لا جمال فيه ولا فن ولا أن يسمع شرحا للعدد والآلات فهو رجل فن وخيال لا رجل ميكانيكيا وستاتيكيا فاستقضى حسينا دينه

قائلا . ولكنك لم تقصص على قصة الغيد الأربعين كما وعدت كيف تم لك هذا النعيم وتحقق هذا الحلم مع أن القوانين تحرم تجارة الرقيق والإماء .

فأجاب — كلا تجارة الرق لا تزال . ويخطىء من يزعم أن ابراهام لنكولن قد أحدث فى الدنيا حدثا . فهذا سوق رقيق وأشار بأصبعه الغليظ إلى لوحة قد كتب عليها (مكتب مخدم عمومى) .

أنظر إلى المكتب فانك لا ترى به أحدا . ولكن عددا من الفتيات والفتيان والصبيات والصبيان لا يحصى ولا يستقصى كلهن رهن إشارة هذا الشيخ المسن العليل الذى لا تكف شفتاه عن التسبيح والاستغفار وعم أحمد هذا والشيخ ابراهيم بمصر الجديدة والحاج سلامة بالمنيرة هم الذين وردوا إلى الأربعين غادة .

— فى سن محكمة الجنايات ؟

— طبعا . . . واختاروهن بحيث تكون لكل منهن ميزة تنفرد بها فهذه مائسة القد ناعمة الخد وتلك فاتنة اللفظ ساحرة اللحظ وثالثة غضة بضة ناعمة الأهاب . . . إلى غير ذلك من مجالى الفتنة ومعانى الجمال يختص بكل مجلى أو معنى إحدى هذه الفتيات .

كسوتهن أفخر الثياب وكان الوقت صيفا فبدين فى الثياب

البيض وكانهن حمائم الإيك وجمعتهن فى منزلنا القديم بالحلمية الذى كان يقيم به جدى رحمه الله مع أربعين جارية فأعدت للمنزل مجده وألغيت فارق الزمان .

قضيت فى هذا المنزل مع هذا السرب البهيج من بنات حواء ليالى هادئة وليالى صاخبه . كان بعضهن يجدن الرقص فكن تريننى كل مساء ألواناً جديدة من فتنة أجسامهن وبراعة حسنهن .

وكانت غالبيتهن يجدن غناء الألحان الشعبية الحديثة . وكانت واحدة متخصصة فى الغناء القديم فكانت مناسبة للعصر الذى عدنا اليه فى هذا المنزل العتيق فقد استمعنا ما اعتاد هذا المنزل أن يسمعه فى غابر عزه .

استمعنا الله يا ليل الله ، على أد الليل ما يطول ، أرخى الستارة اللى فريحنا وكنا أحوج ما نكون إلى تدبر الأغنية الأخيرة واتباع نصيحتها فقد كان الجيران لنا بالمرصاد وتبدى شيخ محكمة الجنايات من جديد بعد أن ظننته غاب إلى غير عودة

ولكن الله سلم فى هذه المرة أيضا فله الحمد على الستر .

ذلك أن امرأة من الجيران كانت مواظبة على رقابتنا من نافذتها موصدة فى النهار ومفتوحة فى الليل ، فرأت ما رأت وتألمت ما تألمت وثارت كرامتها وجرحت عزتها كما قيل . .

وذات مساء جاء زوجها فى مسوح الوعاظ يرشدنا وينصحنا

ولكن — بصوت جهورى وفمه من النافذة جد قريب . ترى أجاء للوعظ أم للتهشير ؟ أجاء يشهد أهل الحى أم يشهد الله ؟ ولكنه لم يكن يشهد أحداً من هؤلاء . لقد نظرت من النافذة فلم أر بالشارع أثراً لإنسان فنظرت إلى أعلى فوجدتها مطلة والنافذة مفتوحة فعلمت أنه يشهدها هى لا أحدا سواها إنه يبرىء ذمته حيالها لا أكثر .

فلما تمادى فى وعظه وإرشاده قلت له فى صوت مطمئن حازم : لقد تماديت كثيرا وقد راعيت حقوق الجوار فلم أولم شعورك . أما الآن فانى أنذرك إذا تماديت فى هذ الهراء .

فاقتضب الرجل حديثه اقتضابا واستغفر وتلعثم وهو يقول : أنا أيضاً لم أقصد إيلامك بل أنا أحبك وأفكر فى مصلحتك وكنت خائفاً عليك من طيش الشباب . وأنا لم أتكلم إلا من عشمى فاعتبرنى أخاك الأكبر .

وانتهت زيارة الوعظ ومضت أيام وزاد اللغط بين أهل الحى ، فكنت إذا أقبلت وجدت صبياناً من أهل الحى يتعلقون بنوافذ الطابق السفلى ليروا ما بداخل المنزل ورجالا يلغطون ويومئون وهم ينظرون إلى المنزل .

فعلمت أن دوام الحال من المحال . وأن هذا التوثب من أهل الحى لا بد له من غاية ، وزاد اللغط ، وكثر سهر أهل الحى ونشطت رقابتهم ، فقابلت الجار الذى وعظنى وكان فى

مقهى بميدان السيدة وجلست اليه معربا له عن حبي إياه واحترامى له وتقديرى لنصائحه فتهلل وجهه واطمأن فى جلسته وهو يقول:أنا نصحتك نصيحة مخلصة لوجه الله تعالى فغضبت وأنا أراك أخاً وأرى من واجبي أن أبصرك بما يجرى هنا فى الحى ضدك.لقد حرر الأهالى عريضة لمكتب الآداب وقعوها جميعا يتهمونك فيها بأشنع التهم . فلماذا تمكنهم منك يابنى .

— وهل رفعت العريضة .

— لا أظن فقد رأيتها منذ ساعة فى يد الحاج سيد لايزال يجمع عليها توقيعات جديدة .

— وما الحل .

— الحل يتوقف عليك فاذا وعدتنى بتسريح صويحباتك استطعت أن أفعل شيئا لصالحك .

— لقد وعدتك فماذا أنت فاعل .

— ما دمت قد وعدتنى فأنا سأبذل جهدى لأحول دون رفع هذه العريضة وسأنجح إن شاء الله — شكراً جزيلا .

وانتهت السكرة وجاءت الفكرة القد انصرفت من حديث هذا الرجل وأنا لا أعلم بالضبط ماذا أفعل فالآراء فى ذهنى متضاربة .

أأمضى فى العناد إلى آخر مداه ؟ إن هذا جميل لأنه يحفظ له ما أنعم به من لذة وسرور ولكنه أمر غير سليم

العاقبة . . والبنات قاصرات فالطريق معبد إلى محكمة الجنايات وليمان طره .

أأسرحهن كما وعدت وأعود إلى الحياة المغامرة الأولى ، الحرة الطليقة هذه خطة أسلم عاقبة . ولماذا لا أجرؤ أن أقول أنها أهنأ وألذ فالليالى الأولى مع الغيد الأربعين كان فيها نشوة المغامرة ولذة الجدة كما كان لها جلال القدم وجمال الأساطير . ولكنها استمرت فأخذ شيء من السآمة يرين عليها ويقلل من نشوتها حتى أصبحت فى النهاية حياة عادية لا مغامرة فيها ولا جدة . ومع ذلك فقد استبقيتها لأنى تعودتها وخشيت من وحشة الانفراد إذا انتهت هذه الليالى .

ولكن الموقف قد تغير الآن . فقد أصبحت سمعتى ومستقبلى فى الميزان وأصبحت فى النهاية مسيراً لا مخيراً . فاعتمدت على الله واخترت فكرة التسريح ولكنى بذلت لهن فيما بعد مساعدات كبيرة . فقد ساعدت بعضهن على الانضمام إلى بعض الفرق الاستعراضية الراقصة وقد برزت إحداهن تبريزاً تاما فتنافست عليها الصالات وأصحاب الأفلام .

واشتغلت كثيرات منهن فى فرق العوالم بشارع محمد على فى إحياء الافراح والليالى الملاح ونبغت منهن مطربة فى الاغانى الشعبية .

فلما قابلنى جارنا ذات يوم ووجدنى ماضيا فى تنفيذ

ما وعدت أعجب بى ودعانى إلى منزله . وكنت لا أحب السيدة لأنها أصل كل هذا العناء وخشيت حين ألقاها أن أرى منها نظرة الشماتة . . . التى تهون على المرء كل المصائب ولا تهون .

ولكنى لم ألبث أن رأيتها صديقة لا عدوة ولم ألبث أن شكرتها على ما قدمت من جميل . (فأنجتنى من حياة الطيش والجنون التى كنت أحياها) .

— الحمد لله . خسارة أن شابا من أصل عريق مثلك يضيع بين أهل هذا الحى الأوباش .

— خسارة ! ولكن الله سلم .

ويتصل بيننا الحديث وتتصل المودة فلا تخفى على شيئا من أسرارها وأسرار أسرتها فاستطيب زيارتها كل مساء لا تغزى عن فقد الغيد الأربعين .

— ولكنها ليست فى سن محكمة الجنايات .

— تساهل . لقد كانت محدثة بارعة ذكية جميلة شائقة ولا تعدم أن يكون من زوارها من فى هذه السن .

وحدث ذات مساء أن كنت فى زيارتها فاشتكى زوجها من ثقل رأسه وتصدعه فاستأذن فى الانصراف فأذنا له بطبيعة الحال متمنيين له أطيب الآمال وما يكاد يصل حتى يسمع له زفير وشخير فقد كان متعبا على ما يبدو . فى هذه الخلوة سألتها : أتحبين زوجك — تحدثى فى صراحة .

— بصراحة أبغضه .

— لماذا وهو وسيم قسيم رشيق القد جذاب الحديث .

— ولكنه ناعم . جبان يدور ويلف ولا يواجه ولا يجابه

حدث مرة أن اتهمنى فى صديق له فغضبت أشد الغضب وما كاد هذا الصديق يصل إلى هنا يوما حتى قلت له . يا فلان بك أرجوك المعذرة إذا قلت لك إن كلام الناس كثير والخير أن تحضر زوجك معك إذا أردت زيارتنا أو أن يذهب زوجى اليك فى منزلك ولا تحضر أنت .

فثار زوجى وفار وصاح بى . كيف تهينين ضيفى كيف تهينين ضيفى وكان فى حالة عصبية فظيعة .

وفى اليوم التالى أتى ومعه الضيف مصالحة له وترضية . فقابلته فى ترحاب ولم أعد أهتم بكلام زوجى واتهاماته .

ومن يومها عجزت تماما عن احترام زوجى لم أفهم بالضبط ما الذى يخافه زوجى من هذ الرجل حتى يستذل له كل هذه الذلة ويرهبه كل هذه الرهبة وإذا كان يعلم من نفسه هذا الضعف فلماذا الاتهام والقذف .. وهل أنا أهل لأن يشنع على ويشهر بى . وهنا تومض عيناها بعاطفة ملتهبة فأقبلها وأعتقها وأنا أقول كلا انه كذوب ظلوم وأنت ملاك طاهر ياحبيبتى ويحتدم الضم والتقبيل على نغمات الزفير والشخير .

ويغادر الصديقان المقهى ويمضيان بضع خطوات فينادى حسين تلميذة فى الطريق . نعمت .

فتقبل عليه فينتحى بها جانباً ويسأله محمود بعد عودته .

— هل هى إحدى صويحباتك ؟

— نعم أليست جميلة ؟

— جميلة جداً . وفى سن محكمة الجنايات .

obeikandl.com

الفصل الثالث

وحى الحـــــذاء

ولـكن الأمر لم يسر بين الصاحبين على هذا المنوال دائما. ولم يواظب حسين على أحاديثه كما توقع صاحبه بل جعل حبه يفتر شيئاً ما. وصار يؤثر بالمودة الصافية والأحاديث العذاب زميلا آخر.

ولـكن الظروف تهيء له دائمـا فرصا لدراسة صاحبه والاطلاع على كل غريب عجيب من أمره.

فبينا هو ذاهب إلى الجيزة للقاء سامى بك الأديب الـكبير إذ أبصر حسينا جالسا على مقعد بواب بالروضـة باكيا منتحبا.

أهو حسين ؟ نعم إنه من غير شك ولـكن ماذا أتى به إلى هنا ؟ وماذا يبكيه وهو جالس إلى جوار البواب وقد كان منذ أسبوع أسعد أهل الأرض يتحدث عن اليخت ولياليه والغيد الأربعين.

فلما وصل محمود إلى الجيزة وزار سامى بك الأديب الـكبير كانت ترتسم فى ذهنه من آن لآخر صورة حسين جالسا على ذلك المقعد المتواضع إلى جوار البواب باكيا حزينا ضارعا

خاشعا . وعول على النزول بالروضة فى عودته من الجيزة والتحدث إلى حسين عله يستطيع أن يفرج كربته ويكشف غمته . أو يعلم سر هذه الدموع .

ولكنه لم يجده ولم يجد البواب وطال انتظاره لها دون أن يبدو لها أثر .

ترى أجاء يشترى هذه العمارة بالنقد المتضخم فى خزائنه ولكن ماذا يبكى فى هذا ؟ ترى هل أصابه هوى جديد وهو الذى يقول إن قلبه لا يعلق به حب وإن كان ينشد المتاع أبداً ؟

وجال بذهنه خاطر طالما ظفر باعجابه وإقناعه ذلك أن حسينا هذا الذى يقضى يومه فى أبهاء الوزارة وحجراتها ثم فى أرجاء المدينة وعلى مقاعد البوابين لو أنه ترك وظيفته المتواضعة ومغامراته وشطحاته وعكف على استثمار أمواله لتضاعف إيراده ونمت ثروته وصار من سراة هذه البلاد .

ولكن حسينا رجل عجيب له منطقة الخاص ومسلكه الخاص وتناقضه الذى لا يقف عند حد ثم من يدرى ألا يجوز أنه قد ألف هذه الأساطير وجعل نفسه بطلها فان غرابتها ونسبتها اليه كلها توحيان بالتحفظ فى تصديقها وإلا فمن يتصور أن فتى النعيم والمتعة يجلس على مقعد بواب خاشعا ضارعا يسكب الدمع الغزير ليستدر عطف ذلك الأسود الغليظ .

وفى الصباح يسأل حسينا عن حاله فيجيبه بأنه فى أحسن الحالات فلا يحرجه بالاستفسار عن مشهد الأمس ويدع

الأمور تسير ولكنه لا يزال يعجب من أن حسينا بعد أن كان يؤثره ويصطفيه قد صار يتجنبه ويتحاشاه وصار صديقه الأثير لديه العزيز عليه (محب افندى) وهو موظف نصف قد أربى على الأربعين بقليل ولا يبدو فيه أثر من كياسة أو رقة ومع ذلك فان حسينا يهبه قلبه ووقته ويقضى معه الساعات الطوال فى خلوة صافية ومودة خالصة .

فماذا تكشف لحسين فجأة من أمر هذا الصاحب الجديد الذى كان يراه شاذ الأطوار جاف الخلق أخرق العقل ميالا للشجار والصدام ثقيلا دميما حقودا على الناس جميعا وإن كان اسمه (محب افندى) لقد كان يحدث محمود أعنه بأنه مغتاب لعين، مشاء بنميم ، عتل زنيم .

قد اجتمعت فى تجاليده مقابح الخلق والخلق .

بهذه الألفاظ وصفه حسين وعلى هذه الصورة رآه محمود فما الذى أعجب حسينا فيه فجأة وعلى غير انتظار ؟

وفكر محمود وفكر فما فزاد السر إلا استغلاقا ولا زادت الحقيقة إلا استخفاء فلا بد له لكى يفهم حسينا على وجهه أن يفهم هذا الشخص الدميم حق الفهم فعول على الاتصال به وتحمل عبء صحبته والحصول على ثقته ونجح التودد وأثمرت الثقة المنشودة فلم تمض أيام حتى قال محب لماذا لا تزورنا يا أستاذ .

فأجاب جذلا مسرورا . أنا تحت النظر ولكنى لا أعرف المنزل .

— العنوان شبرا — كذا شارع كذا — رقم كذا .

وفى يوم الجمعة كانت مركبة الأمنيوبوس تنهب به الأرض إلى شبرا وصورة محب افندى مرتسمة فى ذهنه وإلى جانبها تلك النظرية لبعض الكتاب الانجليز قائلة بأنه لا يخلو إنسان ما من ناحية من نواحى الجاذبية إن لم تكن فى شكله العام ففى عضو من أعضائه . فى عينيه ، فى أنفه ، فى ملامحه ، وإلا فهى فى خلقه أو عشرته .

يتأمل محمود هذه النظرية ثم يتأمل صورة محب ويقول فى نفسه . لا لم أضع يدى بعد على ما يسمونه نقطة الجمال فى هذا الشخص الدميم فلنصبر فقد بلغنا منزله .

— أهلا بالأستاذ محمود

— أهلا وسهلا

— تفضل . . . واقتاده إلى حجرة الاستقبال

— وبعد ألفاظ المجاملة العادية قال محب . أتعرف ما فعل حسين ؟

— كلا ماذا فعل

وقبل أن يجيبه دق الجرس وكان القادم حسينا نفسه .

— السلام عليكم

ـ لا سلام ولا كلام

ـ وما ذنبي أنا ـ الذنب ذنبهم

ـ ذنبك أنت ـ لقد أخجلتنا بتصرفاتك السخيفة . لماذا لم تستصحب أم ابراهيم معك لتمهد لك ولترتزق . . . وهل هذه طريقة ؟

ـ وهل غضبت أم ابراهيم ؟

ـ نعم من غير شك . إنها فى الحمام تغسل ملابسى وقد أظهرت لى منتهى الاستياء من تصرفك .

ـ حالا سأصالحها . . وسمع صوته وهو يقول لها .

ـ صباح الخير يا قمر التمام ويا نور الظلام .

ـ لا قمر التمام ولا نور للظلام روح بلاش كلام فارغ .

ـ كلام فارغ ـ لا لا ما تزعليش أبدا ـ آدى رجلك أبوسها .

ـ أستغفر الله ـ مش كده احنا أد المقام .

ولان قلب المرأة الغاضبة الساخطة وكأنها ما غضبت وما سخطت .

فعجب محمود من كل ما سمع . . . ولم يفهم منا شيئا فقال

ـ ما الخبر

ـ حكاية فى غاية السخافة سأقصها عليك .

أنت تعلم أن زوجي فى منزلها منذ زمان طويل وأنا أبغضها وأتمنى لو طلقتها . وقد أجمعت رأيي يوما على الطلاق وبحثت عن زوجة أخرى فدلتنى أم ابراهيم الخاطبة على زوجة فى حدائق القبة . وأم ابراهيم هذه امرأة صالحة لا تعرف الغش ولا الخداع .

وهذه الشابة فى سن الخامسة والعشرين الآن وقد كانت زوجة لمحام شهير مات عنها زوجها بعد عامين من زواجهما فترملت وقد خطبتها فوجدتها على نصيب وافر من الجمال . وجه مشرق كالقمر وعينان نجلاوان زرقاوان وشعر ذهبي وجسم بض ممتلىء مع طول فى القامة واستواء فى القد وهى تعيش مع أمها وهى سيده تركية آية فى الأدب وكرم الخلق وقد رأيتها وسط أثاثها ورياشها كأنها تحفة من تحف الفن النادرة التى تزين هذه الدار .

فساءلت نفسى أهذه هى السيدة التى سأقول لها إذا أقبل الصبح سخنى الماء أو أعدى الطعام ؟

ولكنى لم ألبث أن أجبت على هذا السؤال قائلا : إذا كانت هى راضية بعد أن علمت بكل ظروفى فماذا يخيفنى أنا ؟

وعزمت على الزواج وأعددت العدة . ولكن بعض الأهل أسفروا بالصلح بينى وبين زوجتى فألانوا عنادها باظهارها على حقيقة ما أزمعت وألانوا عنادى بتذكيرى

بأولادى ، فلذات كبدى . فعدلت عن زواج الأرملة الحسناء

وفى هذه اللحظة أقبل حسين ومعه أم ابراهيم وهو يقول :

لقد صالحت أم ابراهيم وصرنا حبيبين — أليس كذلك فتجيبه أم ابراهيم . طبعاً — أنا أستغنى عن ترابك .

وكانت أم ابراهيم هذه قصيرة بدينة . مكحلة العينين يعلو حاجباها ويهبطان كلما نطقت بلفظ أو أومأت بإشارة .

وكانت ذكية واسعة الحيلة على ما يبدو ، وقد جاوزت الخمسين من غير شك ولكن لا يزال القلب يألفها ويطمئن اليها منذ المقابلة الأولى .

محمود . لماذا غضبت من حسين ؟

أم ابراهيم . لا دا حسين ابنى .

حسين . هاتى ايدك يا ماما ... وأخذ يدها وقبلها.ولكنه لم يبد يوما ثقيلا سخيفاً دميم الدعابة كما بدا فى هذه اللحظة

فلما استيأس محمود منهما التفت إلى محب وقال له : أفندم ايحاء باستئناف حديثه فالتفت إلى حسين وقال :طبعاً محمود أخونا ولا نخفى عليه شيئاً وإنى قصصت عليه ما حدث وسأكمل له الحديث وأظن هذا لا يغضبك .

— أبداً . فاستأنف محب قائلا :

— لما وجدت حسينا يبحث عن الزوجة الصالحة قلت له: إن شابة بارعة الحسن كريمة الحسب قد ارتضتنى زوجا مع

عرفانها بحالى ولكن زوجى ردت إلى فلا شك أنها ترتضيك لأنك مثلى على الأقل . قلت له ذلك فى الصباح فكان فى الساعة الثالثة تماما يضغط على الزر الكهربى بباب منزلها .

— من حضرتك؟ قالتها أمها السيدة التركية فأجاب قائلا: محب أفندى الذى خطب السيدة الصغيرة قد ردت اليه زوجته وأنا زميله ولا أقل عنه فى شىء لذا فقد أرسلنى لأتزوجها بدلا منه لأنى . . .

ولم تدعه السيدة يكمل عبارته فقد أغلقت فى وجهه الباب وهى تصيح : بدله ؟ هى شقة للايجار ولا بيعة .

فخرج يبكى وتوجه إلى البواب فأهوى على دكته وراح يشكو ويبكى ويستعطف ويقول بين الفشيج والزفير أنا سأموت، سأنتحر ، إنى أحبها وأعبدها ولا أطيق بدونها الحياة . وجعل البواب يواسيه ويرفه عنه فانهم قد رضوا بزميله فلماذا يطردونه وذهب الاثنان إلى أمين بك صاحب المنزل وبعد تقديم من من البواب قص حسين قصته بين الزفرات والعبرات ورجا سعادة البك أن يتوسط فى إتمام هذا الزواج الذى يتوقف عليه هناؤه وسعادته .

فنظر اليه أمين بك وقال : انهم ما داموا ارتضوا زميلك فالطبيعى أنهم يرتضونك. وإذا أصروا على الرفض فسأزوجك خيراً منها .

ـ كلا فانها فتاة أحلامى ولن أتزوج من غيرها إذا رفضتنى

ـ على كل حال سأحاول .

وخرج ليحاول ولكنه عاد يقول: لم يقبلوا وقد حاولت اقناعهم بشتى الطرق ولكنهم أتراك .

وهكذا باء حسين بالخسران المبين .

وما كاد محب يبلغ هذا الجزء من قصته حتى علا صوت أم ابراهيم وهى تقول : خاف يدفع لى قرشين ـ جرى راح لوحده ـ أهو اللى لقاه كفاه .

أو تقدرين على إصلاح ما أفسد الدهر .

ـ نعم ـ أذهب اليهم باكر .

ـ إذن فاذهبي . وربنا يتمم ولن أبخل عليك بالمال هذه المرة .

واستأذن وانصرف معتذرا بارتباطه بموعد مع فتاة فالتفتت أم ابراهيم إلى محمود وقالت له :

لكن يا محمود بك أنا عارفالك عروسة مدهشة . غنى وأصل وجمال .

ـ غنى . ماذا تملك ؟

ـ تملك ٣٠٠ فدان وفيلا وسيارة ملاكى . أبوها حسين باشا كان وزير الله يرحمه .

ـ ولكن ربما لا ترضى بى وهى عريقة الجاه واسعة الثراء إلى هذا الحد .

ـ سأقول لها إنك مدير كبير ـ ماهيتك خمسين جنيه وعندك عزبة ميت فدان فى شبين الكوم .

وكان محمود شابا حصيفا فقد رآها تنظر من خلال مجهر. ووراء عدسته رأته مديرا كبيرا . ورأتها صاحبة ضياع واسعة.

ـ وبدأ يشك فى روايتها ولكنه استمر فى حديثه قال .

ـ ومتى تذهبين اليها ؟

ـ اليوم .

ـ مدهش ـ فى أى وقت .

ـ الساعة خمسة . لكن بس جزمتى اتقطعت ولا اقدرش أروح لناس كبار بالشكل ده بجزمة مقطعة . اشترى لى جزمة النهارده وشراب . ففكر فى الأمر ثانية وقال لنفسه . ألا يجوز أن رغبتها فى الحذاء هى سر هذا التهالك والإغراء .

ولكنه أجابها . أجلى هذا الموضوع أسبوعين لأفكر فيه جيدا .

ـ على كيفك .

ومضت أيام وجاء حسين إلى المكتب صباح الأحد جذلا مسرورا .

فقد قبل وسيذهب اليوم لخطبة الأرملة الحسناء .

وفى اليوم التالى يأتى محزونا كسير القلب مهموم النفس .

ترى ماذا يحزنه والسيدة على ما قيل جميلة غنية قد فتنته

قبل أن يراها وسلبت رشده ولكن كثيرا ما تكون هذه المحبة الفجة سببا فى خيبة الأمل عند ما لا تبلغ الحقيقة شأو الخيال وهى قلما تبلغ .

ترى أكان غرامه الفطرى بسن محكمة الجنايات مفسدا عليه فتنة هذه الأرملة الساحرة . كما أفسد عليه كثيرا من طيبات الحياة .

ولكن لا داعى للحدس والتخمين . فكل خاف سيعلم وهذا محب مقبل عما قريب وعنده فصل الخطاب .

وأقبل محب عما قريب ودار بينه وبين محمود الحديث التالى.

— حسين مهموم جدا — فماذا جرى له .

— لقد ذهب لخطبة السيدة التى حدثتك عنها فراقه جمالها ورياشها.

ولكنه جعل يتحسس الأثاث ويعجب بجماله وإتقان صنعه .

ويسأل عن ثمن كل قطعة وهو يبتسم ويتعجب وجعل يحس السجاجيد ويختبر المرايا ويقول . الله دى حاجة لوز خالص .

ودخل حجرة النوم وجعل يتبرك بوضع يده على السرير والحشايا والدواليب. ونظر إلى ما تحت السرير وأبدى ملاحظة سخيفة أدت إلى طرده من المنزل وطردت أم ابراهيم معه وحذرت من دخول المنزل مرة أخرى .

ـ وماذا وجد تحت السرير ؟

ـ وجد حذاء من الكاوتشوك فقال: (دى جزمة رجالى)

فأجابت السيدة الكبيرة بأنها تلبسها أحياناً لأن رجليها تتعبان من الأحذية الضيقة والكعب العالى .

فيرد حسين قائلا : ولكن توجد أحذية حريمى الطف من كده وتناسب رجلك اللطيفة أكثر .

ولكن لماذا اهتمامك هذا كله بأمر هذا الحذاء ؟

ـ لا مؤاخذة ـ ظننته حذاء رجل يتردد عليكن .

رجل يتردد علينا ؟ . . يا ساقط يا كلب . . . أخرج .

وكأنما بوغت ولم يكن يعنى ما يقول فقد تلعثم واستغفر واعتذر .

وبدأ يقول : لست أقصد . . . فقاطعته قائلة : لا تقصد ولا غيره أنت ساقل منحط .

فتلعثم ليلثم قدمها فجذبت رجليها واستدعت الخادم فتولى طرده ودخلت هى فطردت أم ابراهيم وخرج الطريدان مشيعين باللعنات يجران أذيال الفشل وخيبة الأمل .

وهكذا كان الحذاء الذى رأى صاحب وحى مشئوم أفسد عليه أمله فى الزواج من الأرملة الحسناء .

ـ هذه هى القصة لم أخف منها شيئاً ولكن عليك بالكتمان

ـ كأنك لم تقل ولم تسمع ولكن لى سؤال واحد .

— ما هو ؟

— المنزل بالروضة لا بحدائق القبة كما أخبرتنى .

— نعم هو بالروضة ومن أدراك ؟ حسين ؟

— كلا لقد رأيته يوم الأربعاء يبكى وينتحب على مقعد البواب فلم أفهم سره حتى لقيتك — لقد ظننته آتياً ليشترى العمارة بالنقد المتضخم فى خزائنه وضحك الصاحبان ملء الصدور والأفواه على مسلك حسين من الأرملة الحسناء .

ورأى محمود فى محب أفندى نواحى حبيبه حقاً فهو فى منزله مضيف كريم أليف مألوف يشعرك أنك فى منزلك وأنك تعامل صديقا طالت عشرتك له وثقتك به .

الفصل الرابع

حسين يخطب

وما تكاد العلاقة تصفو بين الشاعر ومحب أفندى ويصبح له صديقان بدلا من صديق واحد حتى تعصف يد النقل بمحب أفندى إلى بلد قريب من القاهرة فيقيم له إخوانه حفلة تكريم على نحو ما يفعل الموظفون فى مظاهراتهم الودية التى لا تخفى شيئاً من الحقيقة التى لا مراء فيها وهى أنهم قوم متحاسدون متباغضون... متبادلون مع ذلك أرق اللفظ وأطيب المجاملة . وكأنهم يحسبون هذا ضربا من الديبلوماسية أو لونا من الدهاء وليت لهم نفع من وراء نفاقهم الذى يدعونه ديبلوماسية أو مؤامراتهم الرخيصة التى يسمونها دهاء .

وفى اليوم الموعود صفت الموائد فى حديقة رحيبة بمنزل أحد الرؤساء ووضعت أدوات الشاى وطاقات الزهر ثم أقبل المحتفلون يتحدثون فى أسى وأسف عن فراقهم لزميلهم المنقول الذى سيترك فراغاً لا يملؤه سواه فكفاءته فى كسب القلوب قد فاقت كل وصف وأن أحدهم ليدمع وآخر يواسيه بأن هذه حال الوظائف .

وكان الموظف المحتفى به منقولا إلى بلدة تبعد عن القاهرة

بضع عشرات الكيلومترات وهى شقة غير بعيدة إذ قيست بالجهة التى سينقل اليها حسين فهو عما قريب راحل إلى مكان ما بالأطلنطى .

وأقبل المحتفى به وأقبل الرؤساء فصفق الحاضرون وبدأ تناول الشاى وكان برنامج الخطب والقصائد بيَد أحد الزملاء فرجاه محمود أن يدرج اسم حسين فى قائمة الخطباء . لعله أراد أن يسمع حسينا يتكلم أمام الملأ فان حديثهما كان حتى الآن على انفراد فخشى محمود أن يكون صاحبه مستغلا جدته وعدم إلمامه بماضيه .

خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، وتباكى المتباكون ، وسكبوا ما استطاعوا من دموع التماسيح ثم كان دور حسين فوقف باسما ابتسامته القديمة الماكرة البلهاء ويداه على المنضدة وقد غشاه شىء يشبه الخجل ما لبث أن تبدد .

بدأ كلمته باعتذار عن اتباع تقاليد هذه الحفلة لأنه وقد طلب إليه الكلام يرجو أن يسمح له باستعمال اللغة التى يجيدها . ولما كان من مهده قد نشأ فى حضانة مربية سكسونية ولما كان قد قضى بانجلترا أربعة عشر عاما فانه استأذن فى أن يخطب بالانجليزية فدهش القوم وأنصتوا لحسين يتكلم ويهدر وكأنه الثور الهائج لا يفهم له أحداً لفظا ولا يفقه معنى . ربما كان السبب فى ذلك أن شفتيه وشدقيه غليظان قد غص بهما

فوه ، وحسن الأداء فى الانجليزية محتاج إلى فم طلق لا غصة به ، أو لعل أسلوب الخطاب كان أعلى من مستوى سامعيه فلم يفهمه حتى محمود الأديب المتمكن من الأدب الانجليزى . أيا كان السبب فان أحداً لم يفهم وبدأ الجمع يسخر من الخطيب البليغ الذى بذ فى بلاغته شكسبير وبيرون وما كولى واديسون .....

سخرية خبيثة لا فن فيها ولا جمال ، سخرية موظفين .

وينتهى حسين من خطابه والعرق يتصبب من جبينه لا خجلا فانه أبعد الناس عن أن يخجل ولكن تعباً ونصبا ، فقد كان الخطاب طويلا ويجب أن نعترف أيضا بأنه كان جميلا لمن يفهمه ولكن لم يفهمه أحد. ظلت هذه الخطبة حديث اخوانه أياما وأسابيع واغتن زملاؤه فى التشهير بها عند الرئيس لأنهم رأوا منه استعداداً للهو بهذا الخطاب وبصاحبه فسرعان ما تباروا فى هذا الميدان — افراس رهان .

وسافر محب وظلت علاقة حسين بمحمود على فتورها وفكر الشاعر فى قضاء أمسية بمصر الجديدة وكان سعيداً بهذه الزيارة أيما سعادة — حفيا بها أيما حفاوة . لقد كان يحب هذه الأسرة ولا يزال يحمل لها أجمل الذكريات ويرى نفسه مدينا لها بما يستشعر فى الحياة من هناء ورغد يخففان وطأة ما يلاقيه من عناء وعنت ، فهو بلا ريب مدين لها بقلبه الكبير وحبه الأول .

كانت سونه طفلة عند ما عرفها فى منزل آلها ولكنها لم تكن طفلة فى إدراكها فانها تحدثه وهى فى سن العاشرة حديث فتاة العشرين وأن عينيها النجلاوين وابتسامتها الشاعرة وحديثها الساحر ، وهذا الحاجب الرقيق الذى يعلو قليلا أثناء الحديث وهذه العين التى تضيق أحيانا وتتسع لتزيد الحق وضحا والحياة نوراً إن كل أولئك لفى قلب محمود زاد لا يفنى ومعين لا ينضب .

وما يكاد يدخل المنزل حتى تقابله السيدة باشة مستبشرة ، محييه مرحبة ، ثم تقتاده إلى حجرة الاستقبال ، فلا يرى فتاته ويكاد يسأل فيمنعه الخجل ولكن الأم الذكية تقرأ ما يدور بخلده فتقول له . إن سونة فى حجرة مكتبها تذاكر للبكالوريا وقد أوشك موعد الامتحان . أنجح الله لها المقاصد .

فيحس كأنما انتشل من وهده ويقول : آمين هلم نسلم عليها فإنى مشوق اليها .

فيدخلان عليها الحجرة ولكنها لا تكاد تحس بمقدمهما لفرط استغراقها فى الاستذكار ويقترب محمود منها فما تكاد عينها تقع عليه حتى تحملق مندهشة ولا تنبس ببنت شفه .

— أتعرفين من هذا يا سونة ؟

— أعرفه طبعا . . . وهل أنسى محمودا !

— كيف أنت يا سونة ؟ لقد كبرت ما شاء الله .

— وكيف أنت يا محمود يا من نسيتنا سبع سنين . فآخر مرة زرتنا فى مايو سنة ١٩٣٦ ونحن الآن فى مايو سنة ١٩٤٣.

— كم أنت قوية الذاكرة يا سونة ومتى الامتحان ؟

— فى الأسبوع القادم .

وتباطأ محمود وتلكأ وجعل يسأل أسئلة لا يبغى بها إلا إطالة المكث فى حجرة سونة فتسعفه الفرصة المواتية بسماع الجرس يدق فتخرج الأم — وتتركهما وحيدين يستعيدان ما كان من ذكرياتهما القليلة الجميلة ، أيام القلب الخلى والزمن الخالى . ولكن محمودا يلاحظ أن سونة قدتغيرت شيئاً . فانها الآن أشد خجلا وأقل كلاما ترى أتقتل الاجهاد فى الدرس والتحصيل حيويتها ونشاطها وإقبالها على الحياة أم هو الخجل الجنسى الذى يقوى فى دور المراهقة كما يقول علماء النفس ويتأمل جسمها فيراها قد نمت واكتملت حساً ومعنى وبدا فى عينيها معنى جديد . . معنى الأنوثة الناضجة والحب السالب .

وما تكاد الأم تخرج لتستقبل بعض الضيوف حتى يقترب من سونة ويحدثها فتدع الكتاب الذى كان بيدها وترنو اليه بكل ما فى عينيها من سحر وفتنة فيتأملها محمود ويذكر قولته لصاحبه « إن شدة الحياء تفسد على طيبات الحياة » فلكم تمنى لو استطاع أن يطبع على فم فتاته فى هذه اللحظة قبلة يعتبرها ذروة ما تصل اليه حياته من متعة ونعيم . . . ولكن هيهات

فانه يتهيب هذه المواقف ويقنع منها بسعادة الهائم الحالم ... مكرها لا بطل . . وفجأة تقول سونه : استمع إلى حديث هذا الضيف لأمى إنه حديث عجيب :

أنا سعيد جدا أن أزوركم لأول مرة وبغير معرفة سابقة . إنى بحثت طويلا عن شابة تصلح له زوجا . فلم أجد أنسب لى من كريمتكم .

وأنا لا أبغى المال فان لدى منه سبعون الفا ذهبا ولكنى أبغى الخلق والجمال وأنا حسين مسعود ، كان جدى محافظا للقاهرة وجدى لأمى وزيرا فى تركيا .

إنه حسين جاء ينشد اللهو والمتاع فى هذا المنزل الحبيب الذى يراه محمود حماه وملاذه . قد جاء يقتحم أبواب الأسر بعد أن فض سامر الغيد الأربعين وقطع ما بينه وبين غادة اليخت وفشل مع الأرملة الحسناء .

لقد أتى يعبث بسونة كما عبث بعشرات وعشرات .

وتنصت سونة وينصت محمود اليه وهو يقول :

إنى أشد الناس استقامة بخلاف المعروف عن أولاد الذوات وأؤدى فروض الصلاة والصوم ... فيلين قلب الأم الصالحة فتسأله :

وهل لسعادتك وظيفة أم تكتفى بادارة أملاكك .

— لقد فضلت أن ألتحق فى وظيفة بوزارة الخارجية

براتب قدره خمسون جنيها . . . لانى أكره قضاء الوقت فى البارات والمقاهى كما يفعل أولاد الذوات . .

— تشرفنا يا حسين بك .

— أتسمحين أن أراها الآن ؟ لقد جئت خاطبا .

— ولكنها الآن تتنزه مع أخيها وربما مرا على عميهما .

— وهل لديك ما يمنع أن أظل هنا أنتظر .

— كلا . انك تشرفنا يا حسين بك .

وتقبل الأم سعيدة خفيفة لتبلغهما النبأ السار وما كانا يجاهلين وتدعو ابنتها أن تتزين وتلبس أفخر الثياب لتقابل بعد قليل حسين بك المليونير الذى جاء يخطبها وتقول انها آتية من زيارة عمها وأخوها ذهب لبعض مصالحه وتعود الأم إلى الخطيب الوجيه .

لقد شعر محمود بقلبه ينفطر مما يرى ويسمع فلم يعد يحمل لحسين حبا ولا ودا بعد أن هاجمه فى حماه وطعنه فى أعز آماله فلم يجد بدا من أن يسر إلى سونة بمـــا يعلم من أمر زميله فاشمأزت وصاحت قائلة إنه إذن نصاب حسبنى مُن هؤلاء وخدع أمى .

— لقد شاء أن يزيد الضحايا واحدة .

فعلت هذه الكلمة فى سونة فعل السحر فاندفعت إلى حجرة الاستقبال قائلة للزائر العظيم . انفضل يا افندى . ليس هذا

مكانك . هذا منزل شريف فابحث عن أربعين أخريات .

فكاد يصعق مما سمع وحاولت أمها أن تزجرها وتنهاها فأفضت اليها بكل ما تعلم دون أن تذكر اسم محمود .

فتقول له السيدة . يا بنى هـذا عيب وليس هذا طريق الزواج . إذا كنت تود زواجا فارسل سيدة من أسرتك ثم أمهلنا حتى نسأل عنك فتضيف سونة واعلم أن محكمة الجنايات لن تخطئك إذا كررت معنا هذه المهزلة — مع السلامة .

obeikandl.com

الفصل الخامس

ذات مساء

كان لهذه المفاجأة الأخيرة أثر سيء فى العلاقات بين الصديقين فلم يلبث محمود أن استسمج حسينا واستثقله وصار يحمل له فى نفسه شعورا إن لم يكن بغضا . فليس بعيدا عن البغض .

ورأى نفسه يتجنبه ويتفاداه . وكانت القلوب عند بعضها كما يقولون فان حسينا هو الآخر يتجنبه ويتفاداه ولا يصافحه إلا إذا لقيه وجها لوجه . وما يزال محمود يعجب ويضحك كلما تخيل حسينا يقول للسيدة التركية ... إن فلانا ردت اليه زوجته فأرسلنى بدلا منه . وحين يقول : حسبته حذاء لرجل يتردد عليكن ثم إهواؤه على الحذاء يقبله .

فيسترجع محمود بهذه الصور ويحاول أن يفهم منها أن ما بدر من صاحبه ليس إلا شذوذا أصيلا فى طبيعته لم يقصد به خيانة أو إيذاء .

وكيف يقصد خيانة أو ايذاء وهو لا يعلم أن لصاحبه صلة بهذه الأسرة فيتجنبها ويعفيها من مغامراته . فلماذا الغضب من خطأ غير مقصود وإيلام غير متعمد ؟

إن هذا حيف لا يرضاه التفكير السليم والمنطق القويم ! فكيف يرضاه محمود وهو الذى يعتمد فى تصرفاته وأحكامه على التفكير السليم والمنطق القويم كما يزعم ؟

ولكن إذا كان الأمر يتصل بامرأة ورجل أو امرأة ورجلين فهو لا يخضع لتفكير أو منطق بل لأنانية هوجاء ووحشية جارفة . وكل ما يستطيع المنطق والتفكير لا يعدو تهدئة الخاطر وتسكين الألم بين الحين والحين .

ومضت أيام وهدأ الخاطر وسكن الألم وصفح محمود عن صاحبه لا إلى حين بل إلى آخر الزمان . يعينه على الهدوء والسكون والصفح ما كان يسمع بين الفينة والفينة من سقطات حسين ومغامراته فكان يطيب له أن يصغى اليها ويرى فيها دواء لألمه وبلسما لجراحه حتى صار من هواة جمعها ورواة أخبارها.

وما درى حينذاك أنه مسوق بما كان ينزه نفسه عنه من أنانية هوجاء وحيوانية جارفة فهو ينتقم من حيث لا يعلم .

لذا فاننا نراه ذات مساء يستمع فى شغف وتلهف إلى حديث لزميل عن حسين وعجائبه وكان معهما ثالث من أقرباء محمود أتى إلى القاهرة ليشهد مولدا لبعض أولياء الله .

قال الزميل : ألا تعرف يا محمود أنى اشتريت سيارة حسين .. اليك الرخصة والمفتاح وأخرجهما من جيبه .

محمود : عال . مبروك بكم اشتريتها ؟

الزميل : بمائة جنيه . لقد أفهمته أنى أريد شراء سيارة بمائة جنيه فأحضر الرخصة والمفتاح فأخذتهما ولم أعطه شيئا ولكنه أتى بالأمس إلى بالمنزل فسألته الخادمة عن اسمه فقال (قولى لسيدك محسوبك وخدامك حسين ينتظرك) ـ فخرجت ودعوته للدخول فامتنع وأهوى على حذائى فقبله وهو يقول (أرجوك أن تعطينى المفتاح والرخصة) فقلت له (وماذا تريد بعد أن بعت السيارة ؟)

ـ وأين ثمنها ؟ لم اتسلمه

وعاد إلى التوسل والرجاء فأوصدت الباب من دونه فخرج إلى مقعد البواب وجلس عليه ساعتين وامرأتى تسألنى : من هذا ؟ فأجيب زميل .. فتعجب من أن يمتهن زميل نفسه كل هذا الامتهان . ثم تقول لى . أعطه المفتاح والرخصة لأنه يبدو مسكينا حزينا . لا يحب المزاح . فأقول لن أعطيهما له حتى يكف عن حديث السيارات وأنواعها ومغامراته بها . فتسأل وماذا تظنه يفعل بعد أن لبث ساعتين على مقعد البواب فأجيب لا شىء سيمل وينصرف .

وحاولت زوجى أن تعثر على المفتاح والرخصة لترسلهما اليه فلم توفق فسألتنى : هل اشتريت السيارة وأعطيته ثمنها حقا؟

فضحكت وأخذت زوجتى المفتاح والرخصة لترسلهما اليه ولكنه كان قد مل وانصرف وإن كانت مقاعد البوابين ليست غريبة عنه .

فلما انتهى من قصته سأله محمود :

ـ وهل رأيت السيارة ؟

ـ نعم رأيتها بالجراج . سيارة عال .

ـ والترخيص باسمه . ؟

ـ نعم .

ـ ألا تنوى إعطاءه الرخصة والمفتاح ؟

ـ كيف وقد اشتريت منه السيارة . قالها وهو يبتسم .

ثم استأذن فى الانصراف الى منزله لأنه لم يعد اليه منذ الصباح .

هكذا كان محمود يشجع زملاءه على أن يوافوه بأخبار حسين وأحاديثه وكان يشبع هذه الرغبة الخفية فى الانتقام بطريقة أخرى فكان يدعو حسينا للمحاضرة ثم يدعو إخوانه للاستماع فيجتمعون فى حَلَقَة من حوله وهو يحدثهم بما يراه مناسبا للمقام فان وجدهم شبانا حدثهم عن الهزل والمجون وقارن بينهما فى الشرق والغرب وكان يخلص من أمثال هـــذه المحاضرات عادة بأننا نحن الشرقيين لا نزال متأخرين فى كل شىء فنحن لا نفتن فى مجوننا الافتنان اللائق فيكون مجونا حيوانيا تافها ليس فيه ما ينعم به الغربيون من متاع طويل ولذة دائمة .

وإن وجدهم من أهل الورع والصلاح أو كان بالجمع واحد من أهل الورع والصلاح تحدث عن فضل البسملة

والصلاة على النبي أو بركة الحج وحكمته وتمنيه على الله أن يوفقه اليه ليرى تلك البقاع التى أشرقت منها الدعوة الإسلامية التى تطهر البدن والنفس من كل سوء وكل رجس .

وكان فى محاضراته على اختلاف موضوعها محدثا لبقا سلس العبارة أخاذ الأسلوب ينتقل بك فى سلاسة وكياسة إلى حيث يريد من معلوماته الدينية أو الدنيوية .

لو أنه تحدث بهذه البراعة فى يوم وداع الزميل بدلا من أن يورط نفسه فيما لا يليق بأهل الكياسة والدهاء لتفادى أن يكون حديث إخوانه وسخريتهم أياما طويلة . ولكن منطقه الخاص وتقديره الخاص قد خدعاه وخاناه .

ذهب الصديقان محمود وقريبه ليشهدا المولد فى ذلك الحى القديم من أحياء العاصمة الذى ما يزال وسا كنوه بقايا خالدة للقاهرة المعزية .

ذهب صاحبه لشراء بعض لفيفات التبغ فلما عاد وجده متربعاً على مقعد خشبي قرب باب المقهى (إذ لم يكن غيره شاغراً) وأمامه قدح من الشاى يصب منه فى أكواب دقيقة الخصر مليئة الردف سهلة المأخذ والمشرب . فجلس إليه وشاركه الشاى ثم طلب محمود نارجيلة ... وجعل يستوعب دخانها استيعابا ثم أخذ منها صاحبه لباته وتبادلاها عدة مرات .

وكانت المصابيح تعمر المقهى فى عقود لؤلؤية ذاهبة

آئبة سابغة على الناس والأشياء رواء وضياء فبدا كل شيء جميلا بهيجاً فالمقاعد الخشبيةوالمناضدالنحاسيّة والآنية المعدنية الضخمة فوق مواقد البترول . . . تبدو جميعا فى حلة قشيبة لامعة.أما طابور مداخن الغاب فكان أشبه بصف من الجنود فى حفلة عرض فالصف مستوٍ والسيوف مشرعات بنظام واحد . . . حتى الأسمال التى يرتديها رواد هذا المقهى بدت وضيئة نظيفة .

ولقد أعجب محمود (باللاسه) أيما اعجاب . ورآها أنسب لباس للرأس فى الشتاء فقد كانت برودة الجو تهدده بعودة أمراض الأذن التى أذاقته الأمرين فى الشتاء الماضى . وعجب من جبن علية القوم عن ارتداء اللاسة ، ولكنه عاد فذكر السبب وهو أنها لم تنحدر إلينا من سادتنا الأتراك أو أئمتنا الأوربيين ويستغرق محمود فى تأملاته تلك وهو متربع على مقعده الخشبى . ومبسم النرجيلة فى فمه حتى لا يشك من يراه فى أنه يرتاد هذا المقهى كل مساء .

حتى لقد قال له صاحبه بحق . لقد انسجمت مع المكان تماما وكان الشارع أمام المقهى يتلألأ ضياء وبشراً ويفيض فتنة ودلالا .

فهذه مواكب مختلطة من النساء والرجال من أهل القاهرة والريف فى أزياء متباينات . هذه نسوة جميلات ملففات فى

ملاءات يبرزن فتنتهن وأنوثتهن بالتضييق فى هذا الغطاء الفضفاض ، وضمه على أجسامهن ضما ، فاذا سرن اهتزت أجسامهن اهتزازاً يهز القلوب ، ويفتن الألباب .

وأنهن ليكثرن الوقوف أمام بائع الحلوى المواجه للمقهى ، الذى بدت عرائسه فى مسرح مضاء أكمل إضاءة ، لقد وقفن فى أماكنهن وصفوفهن ، فى طاعة وخضوع ، وكأنهن إماء فى سوق رقيق ، أو كأنهن غيد كساهن حسين ثيابا بيضاء فى الصيف.

وهذه فتيات بعضهن سافرات ، وبعضهن محجبات ، يتلكأن هنا وهناك . وهؤلاء فتيان شبان يذرعون الشارع جيئة وروحا ، ويعلقون على من يرون من فتيات ونساء ، تعليقات تسرهن غالباً لأنها إطراء ومديح .

ويسمع من بعيد قرع على الطبول وألحان على الناى ، فخيمة فاغمة وتقترب الأصوات رويداً رويداً إلى أن تتراءى طلائع الموكب . فهذا فانوس أحمر صغير به نار تتقد وتتصل به عصا خشبية طويلة يمسكها رجل . وخلفه خمسة رجال يعزفون بالناى ألحانا شجيه . يتلوهم رجل يحمل مصباحا جم الضوء على قائم حديدى ، ووراءه خمسة رجال ، فى يد كل منهم دف (طار) ، يدقون عليه توقيعات تذكر بتوقيعات الزار . يليهم حصان عليه راكبان . رجل سمين يلبس لاسة وأمامه طفل ذو عقال و (شال) أبيض .

ومضى الموكب بطبله وزمره ، وبدأت أنغامه تخفت فى السمع ، وتحلو فى الخاطر . وكان محمود شديد الطرب للموسيقى والغناء يجد فيهما ترجمانا لآلمه وذكرياته ، وأمله الباسم الهادىء من وراء الآلام والذكريات . فما يكاد الصوت يذوب ، ويوشك آخر خيط يصله به أن ينقطع ، حتى يقترح على صاحبه أن يلحقا بالموكب . فلحقا به وسارا معه فى حارات تحفها منازل عتيقة متهدمة ، وتعوقها بعض عربات الباعة ، إلى أن تبدى منزل قديم مفتوح على مصراعيه ، مضاء (بالكلوبات) ، فانتهى الموكب اليه ، ودخل الحصان بمن حمل ، ودخل أصحاب الطبل والناى ، بين زغاريد شجية ، واحتفاء بهيج . واحتشد من أهل الحارة نساء يشوبهن بعض رجال ، فسأل محمود إحدى النسوة وكانت وسط الرجال قصيرة عجوزاً :

— ما هذا الحفل ؟

— ختان ... العقبى لك .

— العقبى لى ؟ قالها فى تعجب فاذا رجل قصير فى أسمال ينظر إليه نظرة الذئب حين حاور الحمل ، قال : بتقول للست عقبى لك ؟ عقبالها يعنى إيه ؟

— لا إنها هى التى قالت لى عقبى لك ، فأنا استغربت هذا السؤال .

— يعنى يصح واحد أفندى زيك يقول لواحدة ست

عقبالك تتطاهرى ؟

وكان صاحبنا ذكيا لبقا فرأى ألا فائدة من التفاهم ، فهى مقدمة تقليدية للضرب عند أفراد هـذه الطبقة . فآثر السلامة وخشى العطب واستدار وسار وئيـدا وهو يقول للرجل : لم أقل شيئا من هـذا أبدا . وكان يتكلم فى تأكيد وحسن نية ومضى معه صاحبه إلى الشارع الرئيسى فسأله صاحبه عن سر الانصراف فأجاب : لقـد قرأت فى نبرة الرجل نغمة الشر ، وقرأت فى وجهه سيماء التحرش ، ولا عجب فنحن الآن فى الحسينية .

ويبدو أن التحرش والشجار سمة من سمات هذه الأحياء فالناس فيها يتشاجرون فى كل الميادين وبكل الوسائل . فهذا قتال فى موضع السلام وطعان فى غير ميدان الطعان وبغير ما تعارف عليه الناس من وسائل القتال والطعان .

هذا فقيه يقرأ القرآن فى مكبر صوت فيدوى كلام الله فى أرجاء الحى جليلا وقورا . وما يكاد يقف عند نهاية الآية حتى يقرأ فقيه آخر فى الدكان المقابل من مكبر صوت آخر ، وهكذا تتصل القراءات فهذه آية من سورة الرحمن وتلك من سورة الحديد . . . وهكذا تتعاقب على الآذان آيات الرحمن والحديد .

كل هذا لا بأس به فنحن نسمع كلام الله من قارئين كبيرين يأتى كل منهما بخير ماعنده ، ونحن الرابحون فى الحالين .

ولكن الذى به بأس أن أنصار الفقيه الأول عولوا على افساد الأمر على منافسه ، فكان إذا انتهى من آيته وبدأ الآخر فى التلاوة صاحوا وراء المكبر محيين فقيههم : الله . الله يفتح عليك . الله يقويك .

ولم يلبث أنصار المنافس أن حذوا حذوهم فصاروا إذا انتهى فقيههم حيوه بقولهم : ياحنيّن . ياحلو . انت اللى فيهم . فلم يلبث القرآن أن ضاع بين مظاهرات التهريج وصار هو الآخر أداة تهريج فى أفواه من لا يفهموا منه ولا يقدرونه .

وعلى بعد من جلبة الفقيهين وأنصارهما كان مكبرا آخر يترنم فى هدوء ودلال بألحان مسجلة لبعض المطربات الشهيرات . لم يكن وراءه إنسان يجمع أنصاره أو يجتمع عليه خصومه ، ويشوشوا عليه وعلى الناس فنجا من شر المهرجين .

ولكن ما هذه الحارة الطويلة النحيلة أمام المكبر المغنى ؟ وما هذه المقاعد الخشبية المصفوفة بها ، وما هذه المصابيح التى تسطع فوقها . لنسر فيها شيئا علنا نظفر فيها بقارىء جديد يحتمى فى أعماق هذه الحارة من تهريج المهرجين . كلا ستشهد هذه الحارة التعسة شيئا تشهده مرة كل عام . ستشهد حفلة غناء أو حفلة تمثيل . فى أعماقها مسرح قد نصب وعليه أشباح فتيات . اقترب الصاحبان من المسرح فاقترح سيد أن يجلسا ليشاهدا الرقص والغناء .

أى رقص وأى غناء ؟ قالها محمود وهو لا يقدر أنهما سيقضيان فى هـذه الحارة البائسة اليائسة ليلتهم الطويلة غير نادمين .

أى رقص وأى غناء ؟ لقد كانت على المسرح فتاة سوداء عجفاء، فطساء الأنف، مجعدة الشعر، تهز هيكلها فلا يهتز، وتبدى أسنانها كأنها تريد أن تبتسم وتغنى بصوت مخنوق لحنا تافها ولكنه مناسب لمقتضى الحال ، كما يقول علماء البلاغة ، ذلك أنه من خلال أصوات وكلمات خافتة مخنوقة قد تبين الصاحبان جملة مما تقول ، دلتهما على أنها أحسنت الاختيار ، أما هذه الجملة فهى (جر الشكل أصله عياقة متأخذوناش) أى جملة أنسب من هذه فى حى الحسينية ؟

ويهم محمود بالانصراف فقد وجد المكان لا يلائمه ، ولكن صاحبه يلح عليه ويتوسل فيوافق كارها ثم لا يلبث أن يرضى ويهدأ .

لقد سمع من خلفه ضحكة مجلجلة مزعردة فنظر فإذا امرأة بدينة طويلة تتضاحك وتتماجن ووراءها فتاة فى سن الرابعة عشرة تقريبا عارية الذراعين ، شفافة الثياب كثيرة الدعابة والمزاح ، تشقان طريقهما إلى المسرح .

وانتهت السوداء من دورها وهبطت تجمع ما يجود به المعجبون وكثرت سخرية محمود منها ، فإنها لم تعد إليه من كل

ما قرأ إلا قول الشاعر :

وجه الحبيب وحالى كلاهما كالليـــالى

ولكن صاحبه يقول له : إن بعض رواد الحارة ينظر إليك فاحترس فربما كان للسوداء عاشقون تغضبهم دعاباتك .

فأجاب محمود : لا سيما وقد ذكرتهم الملعونة بجر الشكل . أنظر جيدا لئلا يكون القصير قد تبعنا إلى هنا .

ولم يلبثا طويلا فى مخاوفهما فقد كفا عن الدعابة ، وكفا عن الخوف ، وكفا التفكير فى وجه الحبيب ، وجر الشكل ولم يبق فى ناظريهما واحساسيهما إلا فتاة الرابعة عشرة وهى ترقص .

فقد استلقت على كرسى وجعلت أوصالها تتحرك وعضلاتها تنقبض وتنبسط فى سرعة وحرارة ، ثم تضطجع وتسرف فى الاضطجاع وتتحرك يمنة ويسرة ، ثم تقف وتلقى ظهر الكرسى إليها وتحركه حركات وتغمزه غمزات . ثم تستلقى هى على الأرض وتمثل حركات شائنة وتبعث فى الجو أصواتا داعرة .

ولم ينتبه الصاحبان إلا على منظر الكرسى طائرة فى الهواء هاوية على رءوس بعض المتفرجين ، والضرب بالعصى والكراسى الذى لا يستثنى متفرجا ، صديقا كان أو عدوا .

أما الصاحبان فقد فرا من الميدان وقفزا الى المسرح ومن ورائه وجدا للحارة بقية فاعتصما بها . وهناك وجدا بعض

اللاجئين غيرهم فسألا أحدهم عن سر هذه المعركة فقيل لهم إن عامل المقهى طلب من مجموعة من الزوار الريفيين اثنى عشر قرشاً لأنهم ستة أفراد فامتنعوا عن الدفع ، فرد العامل على رئيسهم برأس فى وجهه أسال الدم من أنفه فسرعان ما هوى أنصاره بالكراسى على كل من بالمقهى وخف لمنازلتهم أنصار المعلم .

وكان الذى تعجب له محمود حقاً أن هؤلاء القوم لا يتحرون فى ثورتهم إيذاء العدو دون سواه بل يضربون بمنة ويسرة بلا تمييز بين من يعرفون ومن لا يعرفون، أو بين الانسان والجماد . فالكراسى والمصابيح والناس . . . كل هؤلاء سواء فى استحقاق العقوبة اذا غضب ابن البلد .

ولم يجرؤ الصاحبان على العودة الى حيث كانا الا بعد أن استيقنا أن العاصفة قد هدأت وأن السلم قد سادت فعادا ومحمود يقول لصاحبه : لو أن أحداً من زملائى رآنى أقفز على المسرح ومنه أقفز الى ثمالة هذه الحارة لما نجوت من شره .

والآن يعود الهدوء الى الجمع السعيد — كما يسمونه — وحل الوئام محل الخصام . ثم أراد أعداء المعلم الانصراف فقال لهم العامل : كلا لا تنصرفوا الآن . انتظروا كرسى المعلم .

لقد عاد حديث الكراسى فهل ينشب شجار جديد قالها محمود فضحك منه جار له وأجابه بأن مدخنة الغاب يقال لطلبها

كرسى واذا كان هدية من المعلم قيل له كرسى المعلم . وقد صدق الرجل فها هو ذا العامل مقبل بمدخنة الغاب على أعداء المعلم منذ دقائق وأصفيائه الآن فيتبادلونها واحداً واحداً ، كأنها قبلات الصفاء يتبادلونها مع المعلم . أما توحة وقد كان هذا اسم الصبية الراقصة فقد عادت الى المسرح وجعلت تتقلب على خشبة المسرح وترسل تأوهات فاجرات قاطعها صوت خشن أجش يقول : خلاص يلا يا جدع أنت وهوه السهر انتهت مدته ، فسارت اليه المرأة البدينة الطويلة تتهادى فى خطوها وتتمايل . ولكن هذا لم يثنه عن عزمه . فسارت اليه توحة لتتوسل اليه بجمالها وفتنتها ألا يفض السامر ولكنه يأبى . . . وهكذا خلق رجال الحفظ من جبلة خاصة . فهم لا يميلون مع الهوى ولا يصدرون إلا عن أمر الرئيس أو حكم القانون .

لقد انتهت الليلة بعيد حادث الشجار وقبل اندمال ما أصاب المتفرجين من جروح وندوب . فلو تركت توحة تكمل دورها وكان قد قارب النهاية ، لما تذمر متذمر ، ولا استاء مستاء .

وفجأة يعلو صوت البشير فقد ظفر المعلم بما لم تظفر به النساء ، ظفر بانصراف الجندى وعاد من لدنه يقول لتوحة : استمرى فى الرقص . فسأله بعضهم ماذا عملت .

فأجاب : أعطيته خمسين قرشا

وصدعت توحة بالأمر فاستمرت ترقص متعمدة اظهار ما ظل خافياً من جسمها ، وما أقله .

فاذا انتهت بين تصفيق الاستحسان ، بدأت تجمع الهبات . فجمعت مبلغا لا بأس به من رواد هذه الحارة ، وكانوا جميعا ، عدا محمودا وسيدا ، من أصحاب اللاسات والجلابيب .

وكان الليل قد أوغل ، فاقترح محمود على صاحبه الاكتفاء بما شاهدا فاقتنع بعد حوار طويل ، ثم وقفا وصفق محمود لاستدعاء عامل المقهى (أو شيخ الحارة) كما طاب له أن يدعوه .

وسار الصاحبان وما كادا يبلغان الشارع الرئيسى ، حتى وجدا شجاراً جديداً . لقد وجد رجل مع فتاة فى حالة مريبة ، وكانا فى الطريق العام ، فرآهما أخ لها وحدث هذا الشجار .

سمع محمود هذه القصة ، ولكنه لم ير المتشاجرين لشدة الزحام ، ثم رأى رجلا مسنا عصبى المزاج نحيلا يشق طريقه فى وسط الجمع المحتشد ، فى عزم وإصرار ، ويندفع إلى قلب المعمعة فيخلى له القوم السبيل ، ويستطيع محمود أن يراه يصفع أحد المتشاجرين ، ويبصق فى وجهه . ثم يلتفت إلى الرجل الممسك بتلابيبه ويقول : « إنه ولد قليل الحياء ؟ . . . أولاد الناس الطيبين يفعل بهن هذا ؟ . ولكن . لأجل خاطرى ، اتركه فهو عبيط . . . مصيبة والسلام ! »

فسرعان ما أخلى سبيل الرجل المستهتر ، واخلى سبيل الفتاة . فرآها محمود عن كثب . . . فتاة سمراء قاتمة ، قصيرة الثياب ، رثة الهيئة ، دميمة المظهر . وأما فتاها فكان رجلا بدا فى جلباب

أبيض ، وجسم ضخم ، لم يكد يرى محمودا حتى أطرق برأسه إلى الأرض .

ولكن محمودا استطاع أن يراه بوضوح وهو فى قبضة الرجل العصبي ، واستطاع أن يلمح تلك النظرة العجيبة ، التى حيرته ولا تزال تحيّره : ترى أهى التفاهة أم البلاهة ؟ المكر والدهاء أم البساطة والطيبة ؟

obeikandl.com

الفصل السادس

ينبوع النعيم

نشوة الحب هى نفحة النعيم . فجمال الناس والأشياء واعتدال الجو ، ووفرة المال ، كلها لا تغنى عن هذه النشوة شيئا ولا تجلب من دونها سعادة أو نعيما . هذه النفحة هى التى تجعلنا نرى جمال الأشياء والناس ، وبذا تفتح لنا آفاقا من السعادة ، وعوالم من النعيم لم نكن نفقهها أو ندرى عنها شيئا .

لقد رأى محمود مقهى بلديا كما مر بنا ، فبهرته بهجته ورواؤه ، لقد رأى الأسمال وضيئه والمقاعد الخشبية بهيجة ، واللاسة أنسب الأزياء . وسمع ألحان الناى ، فوجدها تترجم عن أمله الباسم الهادى ، من وراء الآلام والذكريات . ورأى رقص الفتيات الساقطات فى وسط الرجال الأشرار فى تلك الحارة النحيلة الطويلة فى حى الحسينية ، فطرب له واطمأن إليه .

ورأى حسينا فى موقف لا علاقة له بكل ما روى من قصص وأساطير فعجب وطرب .

لقد كان سعيداً بهذه الليلة أيما سعادة . تنبع سعادته من صميم نفسه ، فتسبغ على الناس والأشياء نورا وضياء ، وعلى الحياة جمالا وسحرا .

فاذا أردت تتعمق أسرار هذه السعادة ، فسل من رأوه فى أصيل ذلك اليوم جالسا معها فى الشرفة ، وفى يده كتاب وهى تتلو عليه بعض المقطوعات الفرنسية ، استعدادا للامتحان ، الذى يكرم فيه المرء أو يهان .

لقد كان صاحبنا فى هذه الأيام ، يتردد على منزل سونه بين الحين والحين ، يراجع معها ماتحتاج من علوم ، ويرى فى هذه الساعات لذة ونعيما ، وإن كان فيها أمينا فى عمله وخلقه ، كما هو أمين فى شغفه وحبه . فلم يحدث يوما أن حدثها فى غير موضوع الدرس ، ما لم تطلب ذلك وتصر عليه وعندئذ يحدثها حديثا موجزا متحفظا فى الشعر والأدب ريثما تستجم ، وتعاودها الرغبة فى الاستذكار . ولكن هذا اليوم كان يوما ممتازا ، كتب عنه فى مفكرته مايلى : (لقاء .... مفاجأة سارة . . . أسعد أيام الحياة) فماذا كان من سونه حتى سحرت هذا الرجل الذى رأيناه أول الأمر متزمتا واجما وسمعنا عن جده ودأبه ؟ لا شىء أكثر من أنها فتحت حقيبتها وأخرجت منها قصاصة قديمة من صحيفة يومية . ما هذا ؟ قصيدتك التى نشرت بالاهرام منذ ثلاثة أعوام . قصصتها فى حينها لأطالعها فى خلوتى بين الحين والحين .

فهل كذبه قلبه حين كان يقتاده إلى منزلها كل مساء ؟ وهل خدع فى حبها ؟ كلا . . فانها تبدو مخلصة صادقة وقد أثبتت ذلك بالبرهان . فقد كانت تحتفظ بآثاره قبل أن يكون هناك أمل فى استئناف المودة واللقاء .

وخطر له خاطر ثم ذكر هذين العصفورين الغردين فى منزل سامى بك بالجيزة ، ينوحان بأشجى الألحان حين يفترقان ، ويسكنان عن التغريد والنشيد حين يجتمعان . وفاضل ووازن ، وآثر آخر الأمر أن يظل طائرا ، غردا لا يكف عن الانشاء والغزل .

وفى الليلة التالية ذهب إلى سونه كعادته ، ولما أجهدها العمل وطلبت منه أن يحدثها عن صاحبه حسين ريثما تعاودها الرغبة فى الاستذكار ، حدثها بما كان من شجار . وبما رأى وشاهد فى الطريق العام ساعة الانصراف وحدثها بأنه صار يراه ذا شخصيات ثلاث : شخصية صاحب اليخت ، وهى شخصية رفيعة منيعة ، رفيقة مع ذلك رقيقة . وشخصية الأستاذ الجامعى حين يلقى محاضرة ولو فى موضوع مجونى ، فقد كان استغراقه فى الموضوع وطريقة القائه تشيران إلى عقلية طال درسها وفهمها لشئون الدين أو الدنيا ، ولها فيها آراء ونظريات واكتشافات تلقى جميعا بهذا الأسلوب الهادىء الرزين . . . . وكأن ليس فى الأمر جديد .

وشخصية ثالثة أمعن فى التواضع من الثانية . شخصية تحتمل الضيم من الزملاء ، وترد عليه بابتسامة عريضة ، تافهة بلهاء ... يتندرون به فلا ينبس ببنت شفه !! وكأنما أغراهم هذا الاغضاء فتمادوا فيه إلى أبعد الحدود . وقد بلغ من أحدهم وكان صلفا متعجرفا أن ينهر حسينا ويقول له : إما أنك مخبول . أو تظننا مخبولين . ما هذا ؟ بخت !! مريبة !! انجلترا !! وفى هذه

المرة يرد حسين بعد طول صبر وطول سكون فيقول : أليس هذا خيرا من أن أتحدث فى سير الناس ؟

لم يحضر إلى عمله فى صبيحة المولد . وفى اليوم التالى جاء معصوب الرأس ، وظن أنه مريض ، فلما سأله أخوانه عن سر غيابه وسر هذا الرباط ، أجاب قائلا : لقد سقط المنزل علينا ونجونا بأعجوبة . فقال له أحد أخوانه : مالك والسكنى فى المنازل المتهدمة ؟ ولماذا لا تقيم فى يختك أو عمارتك ؟ فينظر إليه حسين نظرة الضراعة التى تقول : كفى كفى . لقد أتانى ما كفى .

* * *

وفى اليوم التالى أتى سليما معافى وفى عينيه بريق العز والمجد ، ذلك الذى رآه محمود حين كان يستمع إلى قصة اليخت أول مرة ، كان كتفاه مرفوعين فى وقار وجلال ، وما يكاد يبلغه الساعى وفى يده ورقة من المدير ، حتى يذهب هذا البريق الرقيق وتحل محله روح من الضراوة والقسوة ويتبدّى فى شخصية رابعة هى شخصية حسين المحارب .

فما يكاد يبلغ مكتب المدير حتى يسمع به ضجيج وعجيج ، فاذا هرع إخوانه إليه وجدوه ثورا هائجا ، كما شبهه محمود الريفى . فقد كان شديد الثورة يهاجم المدير باليد واللسان ولولا أن كان بينهما مكتب عريض ، لحدث مالم

يكن فى الحسبان ، ولكان هذا المدير الآن فى خبر كان . كان إذا هاجمه حسين من يمين اعتصم بالشمال ، وإذا تبعه إلى الشمال ثاب إلى اليمين . ولم ينقذه إلا مرءوسوه حين أتوا على صوت الثورة الهوجاء . وأخيرا هدأت العاصفة ، وسكن حسين فاتصل المدير برئيسه فطلب هذا أن يوافيه حسين ، وأخبر حسين بذلك ، فعاودته ثورته وعلا صوته وخشى الزملاء أن يعود اندفاعه سيرته الأولى ، فحملوه فى رفق وكياسة على مغادرة حجرة المدير فغادرها . . . واختفى .

كان ثورا هائجا وبحرا مائجا ، يرغى ويزبد ويقول بأعلى صوته : « الوظيفة على جزمتى أنا أكسب فى اليوم عشرين جنيها . » أما الكلمات التى وجهها إلى المدير فلا يليق ذكرها لأنها بلغت من النبو والقحة مدى لم يتعوده الناس من بعضهم البعض ، فضلا عن الرؤساء من المرءوسين .

وكانت هذه الثورة حدثا عجيبا من حسين المسالم ، الذى يهاجم كل يوم فلا يدافع ، ويرد بابتسامة تافهة بلهاء ، أو برد خير منه الابتسامة التافهة البلهاء . ولكن زميلا قديما حصيفا يعلق على هذا الحادث قائلا : لقد لاحظت أن هذه الثورة تنتاب حسينا مرة كل سبع سنين وتستمر أسبوعا تقريبا ، وبعده يحتمل الاهانة والاذى سبع سنين أخرى ، ليثور أسبوعا آخر .

وعاد الموظفون إلى المدير فوجدوه فى إغماء شديد ، فأحضروا له بعض العقاقير ، وجعلوا يفكون عنه الأربطة والاثواب ، ويدلكونه بالكولونيا حتى استفاق ، وكان الايذان بذلك أن أجهش بالبكاء فاذا استوفى منه حظه قال : « يا أخوان لو أن ما حدث اليوم كان من غير حسين لهان الخطب . ولكن الذى لايهون هو صدور هذا من حسين — إنه إذا أقبل على فى حجرتى رفع يده إلى جبهته بالسلام العسكرى وسار وئيدا باسما فى ذله حتى يبلغنى ، فيوسع يدى لثما وتقبيلا ثم يعود بظهره القهقرى حتى يبلغ الباب ، فيخرج منه بظهره ولا يزال يتقهقر . وما تزال يده فى مكانها من جبهته حتى يختفى عن الانظار .

شخص تبلغ منه نفسه هذا الهوان لا بد أن يكون شخصا خطرا ... كان هذا رأيي فيه دائما وقد تحقق ما رأيته .

* * *

بهذه الاحاديث كان يرفه عن سونه عناء الدرس بين الحين والحين ، ثم يستأنف معها العمل بعض الوقت ويغادرها على أمل اللقاء فى الغد ، دون أن يطيل عليها خشية أن يثير مخاوف أخيها وشكوكه ، وإن كان محمود لا يثير المخاوف ولا الشكوك فى نفس من يعرفه حق المعرفة .

الفصل السابع

اعتدال الريح

سبحان مقسم الأرزاق . حسين فى ثورة وهم ومحمود ماض فى زورقه الحالم إلى الأرض الموعودة .

لم يمض يومان على حادث الشجار ، حتى تغيب حسين فى اجازة مرضية . وأمر الاجازات المرضية فى هذه الاحوال مفهوم ، فهى لا تعنى المرض على الاطلاق . يشهد بذلك أن رئيس المدير اتصل به تليفونيا وذكر له أن حسينا زاره فى منزله ، ويبدو أنه (جدع غلبان وطيب جدا وياسيدى الحق اللى عليه علىّ أنا) واجابه المدير : « العفو ياسعادة البك .. المسألة منتهيه تماما .. متشكر جدا يا سعادة البك » . ولذا فليس ثم ما يدعونا إلى القلق على حسين فهو بخير ، وربما يعود سنسبح مع الشاعر الولهان فى زورقه الفضى علنا نبلغ معه الارض الموعودة .

لقد كان صاحبنا يعيش فى عالم من اللغو الجميل ، شأن الفنانين وأدعياء الفن ، كان يسير بسمته النحيل الطويل ، وخطواته الوئيدة وفى عينيه النجلاوين تحت حاجبه الكثيف معنى الثقة بالنفس ، التى هى مصدر كبريائه الباطن ، وتواضعه الظاهر . فهو واثق من قدرته وكفاءته . مترفق مع ذلك بمن

حرموا هذه القوة الخارقة التي من الله عليه بها ، معتقدا في قرارة نفسه أنه مدخر للجلى ! وأن له يوما تعرف فيه قدرته ، وتنجلي عنه غمرته . وقد يراه بعض الناس مسرفا في التواضع ، ويراه آخرون مسرفا في الضحك والاستهتار ، ولكن لتعلم أن وراء تواضعه غرورا ، وأن وراء مرحه ألما دفينا ، لا تخطىء أن تراه رأى العين إذا صحبته يوما كاملا . وقد كان لغروره وألمه فضل عليه فقد جنباه مهالك كثيرة ، تردى فيها اخوانه ولداته ، من اندفاعهم وراء نزوات الشباب ، ووقاه أن يدنس سمعته بما لا يليق بالفنان الموعود .

وهو الآن سعيد بألمه ومرحه ، وتواضعه وغروره ، سابح في زورقه الفضي على أمواه الخيال ، يلقي بين الحين والحين نظرات رثاء على الشاطئين ، حيث الناس يعتركون في غير معترك ويختصمون في غير مختصم ، ويحيون حياة تافهة ، ليس فيها حب ولا خيال .

أما هو فماض في زورقه الحالم إلى الارض الموعودة .

ولقد تآزرت الظروف على إشباع خياله وتحقيق آماله في هذه الايام . فبالأمس كان معسونه وكانت معجبة بشعره ، تنشده بلذة وشغف وترجوه دائما أن يوافيها بقصائد جديدة ، وكانت اذا رددت بعض اشعاره أحست فيها بحياة نابضة ، وخيال مبدع ، وجمال بارع ، فحسب أنه صاحب عبقرية لم يتبينها

أول الأمر . . . وما حسب أن الحياة النابضة والخيال المبدع والجمال البارع . . كلها من نفحات راويته الفاتنة الحسناء .

لابد إذن أن يصدر ديوانا من الشعر يبذ فيه المتقدمين والمتأخرين .

وكأنما كانت الظروف ممهدة والطريق إلى المجد معبدا فها هو ذا بوزارة الأوقاف عائد بعد حديث بالمسرة . . . أشد ما يكون سرورا وسعادة .

إن سامى بك يدعوه إلى لقائه فى الغد (الجمعة) لتناول طعام الغداء على مائدته وليتحدثا شيئا فى شئون الأدب .

وهكذا كان النجاح يسعى إليه من كل جانب . . . ولقد أكبر فى سامى بك الأديب الكبير أن يدعوه للحديث فى الادب ، وهو كاتب الأحكار فى وزارة الاوقاف . إن ديوانه الخالد سيحظى من غير شك بمقدمة رائعة لسامى بك ، الناقد الخطير والكاتب الفذ . وسيثير ضجة كبرى فى الصحف والمجلات الأدبية . . . لقد اعتدلت الريح وعرف قدر الشاعر . فماذا يقول فى هذا أبو التوابع والزوابع ، ومن لف لفة من المديرين المغمورين ، والأذناب الجهلاء . . . ؟

وذكر وهو مستغرق فى هذا الحلم دعابة سامى بك له بالمسرة ، إذ سأله قائلا — كيف حال أبى التوابع والزوابع الآن — وذكر رده عليها بقوله : خرس التوابع فسكنت

الزوابع . . وضحك سامى بك طويلا ، ثم لم يلبث صاحبنا أن همس الشيطان فى أذنه : ألا يجوز آخر الأمر ، أن احترام سامى بك إياك ، ليس لموهبة توافرت فيك ولا كفاءة بدت منك ، وإنما هو وفاء وإكرام لهذا الثاوى هناك . . . . على بعد نيف وخمسين ميلا من القاهرة ، منذ نيف وربع قرن من الزمان ؟

أهو التقدير لشخصية محمود ومواهبه أم الوفاء لأبيه ؟ هذه هى المشكلة . وليس يحفظ محمودا أو يغضبه أن ينى أحد لأبيه طول هذه المدة المديدة . بل على العكس إنه ليسره ويطمئنه أن يرى فى هذا الزمان أثرا اللفضائل والمعنويات . ولكن هذا الوفاء على نبالته ونقائه يسعد محمودا من حيث يؤلمه ، فهو يكرم محمودا — باعتباره ابن رجل فاضل — ويؤلمه إذ يشعره بأنه يعيش كلاّ على ذكرى أبيه ، دون أن يكون له فضل خاص من علم أو أدب .

نحن الآن فى يوم الجمعة صباحا فنراه يستعد ويتأهب لهذه الفرصة الذهبيةالتى تسعى إليه وكان ينوى أنيسعى إليها ، فهو يريد أن يستأنس برأى سامى بك فى طبع الديوان ونشره ، والتمهيد له فى دوائر الأدب والشعر .

— الاستاذ موجود

نعم : تفضل يافندم . ودخل محمود غرفة الاستقبال فما

أعجب ما رأى ! ! ! رأى سمير بك التابعى وسامى بك جالسين جنبا إلى جنب فقال له سامى بك مبتسما : لقد وافانا أبو التوابع والزوابع قبلك بنصف ساعة .

آلمت هذه الدعابة محمودا فانها جديرة أن تعيد إلى ذاكرة المدير ماغاب عنها من ألم وحزن ، ليس لهذه الدعابة محل الآن بعد أن بدأ المدير يقرب محمودا ويبعد بطانته القديمة . . . ولكن ماذا عسى أن تفعل هذه التذكرة من سامى بك ، الرجل المرتجى عند النوائب المفتقد عند الشدائد ؟

ولم يطل الامر بحيرة محمود وألمه فقد ابتسم سمير بك ابتسامة وضيئة ونظر إلى محمود قائلا : أو هكذا اسميتنى ؟ فيجيبه محمود على الفور باسما : وعلى متن الزوابع جئت إلى القاهرة .

سامى بك : ألا تعرف أن سمير بك صهرى ؟

لقد ود محمود فى هذه اللحظة لو ساخت به الأرض ، فقد كان يتندر ببعض مواقف سمير فى ندوة سامى بك ، دون أن يمر بذهنه أن رجل الأدب والفن صهر مدير الأجر والاحكار .

ثم يتكلم سامى بك فى رزانة وثبـــات ، شأنه دائما فى الحديث ، فيقول : وقد جمعتكما لتتصافيا ولا يكون فى نفس أحدكما شىء من سوء أو ريبة بالآخر . فيجيب سمير : أؤكد لسعادتك أنه لم يبق فى نفسى شىء من شك فى محمود وكرم

خلقه . . ، فأنا ، بعد الذى ذكرته عن تاريخه وقصة حياته وأدبه وعلمه ، ندمت على ما أصابه على يدى من عنت . وأدركت أنى كنت مخدوعا فى بعض المرءوسين ، فقد كانت الأخبار ترد لى منهم مخالفة تمام المخالفة لما علمت الآن . والتفت إلى محمود وقال : وإنى أعتذر لك يابنى ، وستكون عنى راضيا بإذن الله .

فنظر الشاعر فى دهشة وغبطة إلى سامى بك ثم إلى سمير بك وقال : أنا متشكر جدا . . . ولكن شكرانه وعرفانه بالجميل كانا باديين فى حيائه الشديد الذى طغى عليه فى تلك اللحظة ، وحبس لسانه عن أن يؤدى للرجلين الكريمين ما يستحقان من شكر .

ولا يكتفى الرجل النبيل سامى بك بذلك بل يقول لسمير : وما رأيك فى رفع الغبن الذى أصاب محموداً ؟

— سأرفع كل غبن وسيكون بمحمود راضيا عنى إن شاء الله .

ونسمعه بعد بضع دقائق يتلو على الرجلين العظيمين قصيدتيه الأخيرتين . . . وعند ما يفرغ من قراءتهما يقول له سامى بك : قصيدتان رائعتان حقا ،

وأما سمير فيظل مطرقا بعض الوقت ثم يخرج منديلا من

جيبه يجفف به دمعه . . . لقد كان رجلا مرهفا . وكان صاحب صدمة قريبة على ما يبدو .

فيتشجع محمود ويسأل سامى بك فى شأن الديوان الذى أزمع طبعه فيجيبه : إذا كان ديوانا من هذا المستوى فانه لا شك سيخرجك من غمرتك ، ويفسح لك مكانا بين شعراء الصف الاول فى هذه البلاد . . وانى اعدك بالمساعدة والتشجيع .

* * *

وينصرف محمود فى الأصيل وهو يذكر صاحب الفضل عليه فى هذا النبوغ الجديد ، فى الشعر والفن . . .

ولكنه عندما يبلغ الباب يرى الطائرين يغردان . . . فى تجويد وافتنان ، محدثين بنعمة الشوق والحرمان .

ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو مع الشاعر الهيمان ، فقد كان الدهر له بالمرصاد ، ففجع فى أسبوع واحد فى حياة حسين وحب سونة .

أما حب سونة فقد تجلد له ، وصبر عليه صبرا لم يكن منتظرا من فنان أودعى فن ، بل لم يكن منتظرا من إنسان أيا كان . فقد كتب عنه فى مفكرته : (٥ يونية — صدمة زال أثرها نهائيا) فلنعبر هذه الصدمة ما دام أثرها قد زال نهائيا إلى الصدمة التى ليس له بها قبل ، أعنى « وفاة حسين » .

الفصل الثامن

ضحك الدنيا

« حسين مات »

هكذا قال النعى وانصرف إلى الحجرات الاخرى ليبلغ النبأ الفاجع ، الذى وجم له الجميع فترة ، ثم قال أحدهم : كلنا لها . وقال آخر : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسأل محمود زميلا له قائلا : هل كان مريضا . فأجابه « لا أدرى فقد كان فى اجازة » : وكان محمود قد شغل فى هذه الايام عن حسين بعد إذ اشتمل عليه هذا الهوى الجديد وتمكن منه ، وسار حظه فى إقبال ونجمه فى صعود .

ولكن قولة (حسين مات) أصمت فؤاده ، ومرقت إلى أحشائه وأثارت فيه كامن الألم ، وهادىء الشجن .

فقد كان الموت عنده معنى آلم وأعمق منه عند سائر الناس . فهو ليس مجرد سنة من سنن الوجود ، أو ناموس من نواميس الحياة ، بل هو الشبح البشع الرهيب الذى اقتحم عليه مهده ، وقبض أباه فى عنفوانه ، عندما بدأت تتبسم له الحياة ، وتجزيه عما أسلف من جهاد وقدم من خير ، نجاحا وتوفيقا يبشران بمستقبل باهر .... فأحال الخصب جدبا ، والانس وحشة ، والنور ظلاما ، والعرس مأتما . وعاشت هذه الاسرة الضعيفة

من بعده... سرورها تكلف، وأنسها تأسف، وزادها تعفف. ولقد ائتمر عليها مع موت العائل والسند شبح قوانين ولوائح تحرم الحفيد تراث الجد إذا حرمه القدر حنان الأب وجهاده، فإنما هذا التراث للأعمام القادرين على الكسب، لا لأطفال أتعسهم القدر وطاح بأبيهم، وظهر أنهم فأل سيء ... لقد حرموا رحمة السماء فاستحقوا غضب الأرض.

وذكر حنان جده الذى كان أرحم بأحفاده من واضعى القوانين واللوائح، فأنزلهم منه منزلة أبيهم، ووقف عليهم بعض ماله القليل، فدمعت عيناه للذكرى الحزينة.

هذا هو الشاب الطروب المرح الذى يحسبه من يراه أسعد الناس وأبعدهم عن جد الحياة وغمومها، فحذار أن يخدعك مظهره ودعابته، فهو ابن الألم والعيش المرير، ولكن الطبيعة منت عليه بنعمة الفكاهة والمرح لتغالب هذا الألم وهذه المرارة، اللذين يوشكان أن يقضيا عليه لو تركا لشأنهما.

(حسين مات) يا للحسرة ويا للبلاء إنه مما يضاعف ألم محمود وندمه حين سمع بنعى صاحبه، أنه كان يهزأ به فى بعض الأحيان، ويروى أخباره فى شيء من التهكم والاستخفاف، ويدعوه لإلقاء المحاضرات، ويجمع السامعين الساخرين...

كل هذا لا لذنب اقترف ، أو خطأ ارتكب .... ومع ذلك فقد كان رحمه الله يقابل هذه المواقف بابتسامة الرضى والمسالمة .

مات حسين — كما قال النعى — وخلف صاحبه حزينا محسورا نادما مستغفرا .

وها هو ذا محمود بعد انتهاء موعد العمل يغادر ديوان الوزارة وفى يده قصاصة من الورق وفى يده الأخرى منديل يجفف به دمعه ، فيجد تراما مقبلا فيتعلق به ، ويمضى الترام ثقيلا عليلا كأنه قلبه الكليل العليل .

ها هو هذا قد وصل إلى ميدان الحسنية فنزل عن الترام وانتحى جانبا ليجفف دمعه ، ولكنه أجهش بالبكاء . ثم مضى فى بعض الشوارع ، ثم ألقى نظرة على قصاصة الورق التى بيده ودلف إلى حارة مكتوب عليها (حارة الحلة) . ولو كان محمود فى غير هذه الحالة الباكية المبكية لعجب وطرب من أنه لا يرتاد مكانا جديدا ، بل مكانا كان يتجول فيه مع صاحبه الريفى فى ذلك المساء، ولعلم أن ليلته تلك لم تذهب عبثا .

ولكنه يمضى لا يلوى على شىء وفى يده قصاصة تنبئه بالعنوان وتجاوز ذلك المنزل الذى كانت به حفلة الختان . وبعد ثلاثة منازل كان المنزل المنشود. فتثقل خطاه وتخور قواه، وكأن الثلاثين عاما التى انقضت على وفاة أبيه ، ساعة أو بعض ساعة .

وبعد ذلك يقف فى الطريق .

ويستوقف فتاة فى زى المدارس مقبلة على المنزل : أهذا منزل حسين أفندى مسعود

— بابا ؟

وعرفها الباكى الحزين فانها نعمت من غير شك ، تلك التى قابلها مع أبيها ذات يوم قرب ميدان الملكة فريدة وقال أبوها إنها من خليلاته . ياعجبا أن الفتاة ليست محزونة ولا باكية بل أنها لتدهش من حزن الزائر وبكائه . فتسأله : مالك ؟ خير إن شاء الله .

فيطيب نفسا ويثلج صدرا ويسألها : كيف حال بابا ؟ فتجيبه . تفضل لقد عاد من دفن تيتا .

— تيتا ماتت ؟ — نعم — كم عمرها — ٩٠ سنة — البقية فى حياتك .

ثم مر بصحن الدار القديمة فرأى ثلاث صبيات أخريات لهن جميعا ذلك الوميض الذى يتلألأ فى عين أبيهن . فليس من شك فى أنهن بناته . وصعد الدرج المتهدم ودخل إلى حجرة بالطابق العلوى وفى صدرها رأى الفقيد العزيز ، حسينا بلحمه ودمه . جالسا مستغرقا مفكرا . . . أو أنه كان يبدو كذلك على الأقل .

* * *

اطمأن محمود بعد أن واسى حسينا بكلمة تقليدية مقتضبة ،

فقد كان العزاء لونا من المجاملات التى لا يحسنها . وبعد أن قضى بعض الوقت ، استأذن فى الانصراف ... وتبعه إلى خارج المنزل شاب يلبس جلبابا وطربوشا وسترة . يبدو أنه قريب الأسرة أو أحد أفرادها فلنستمع إلى حيث محمود معه .

محمود : هل لحسين أبناء ؟ الرجل : ليس لديه ذكور ولكن لديه أربع بنات .

ومن هذا الرجل النحيل الجالس إلى جواره ؟

سأل هذا السؤال وهو لا يشك فى إجابته فقد استنتج أنه أبوه لا محالة . أليس هو الرجل الذى صفعه ليلة المولد ثم قال لخصمه : اتركه لأجل خاطرى فانه عبيط . ولكن المجيب مع ذلك علمه مالم يعلم ، قال . إنه عم مسعود الملا . أبو حسين لقد كان هذا الرجل قبل أن يمرض ضخما جدا ... كان أسمن من حسين . ولكن المرض يهد الجبال .

— وهل لقبه الملا ؟

— كلا إنها مهنة . كان يدير آلة لرفع الماء (طلمبة) فى مسجد الكردى فلما أدخلت المياه إلى المسجد ترك هذه الوظيفة وظل اسمه مع ذلك عم مسعود الملا .

— لم أكن أحسب أن لحسين أربعة بنات ، فقد حسبته أعزب لم يتزوج .

— إنه فى الحقيقة فى حكم الأعزب لأنه يبغض زوجته بغضا شديدا ، لذا فهو يهيم كالأعزب الضليل ، ويزج بنفسه فى مشاكل كثيرة . وفكر محمود وهو يستعرض أباه وبناته ومنزله فكر فى اليخت والأربعين غادة بمنزل الخلية وشركة الطيران وأسطول الولايات المتحدة .

وذكر تلك الشهادة الطبية .. التى لا تنم عن شىء آخر ، سوى أنه دفع لطبيب شيئا من المال ليذكر أن صحته جيدة تسمح له بقيادة وابور بخارى بحرى ، ولم يخالف الطبيب ضميره ، فصحة حسين غاية فى القوة والمناعة . واستغل هذه الشهادة للتدليل على صدق ما يروى من أساطير وقصص .

* * *

هذا هو حسين قد وضح فى ذهن محمود وبدت شخصيته المستفلقة على الكثيرين ، كتابا مفتوحا تستطيع أن تلم به فى يسر وسرعة .

انه ابن عم مسعود الملا ، وهذه النسبة وحدها هى صاحبة الفضل فى تكوين هذه الشخصية على النحو الذى رأيت . لحسين يشعر بها فى أعماق نفسه وصمة ضخمة ، لا بد من تغطيتها بالأكاذيب الضخمة .

فأصبح صفر المنشأ والفقر ، عراقة فائقة وثروة متدفقة . وهو فاشل فى نسائياته ، فقد فشل مع سونة ، ومع الأرملة

الحسناء ... وهو الذى كان يقول لمحمود : أصحبنى فى جولاتك ، فسترى البرهان ، وليس الخبر كالعيان . وقد رسب حسين رسوبا مخجلا فى كل امتحاناته النسائية فى الحياة ، فجعل لنفسه فتاة فى يخت ، وأربعين غادة فى قصر ، وعرف لنفسه فتنة لا قبل لبنات حواء بمقاومتها . ومضى على هذا النحو يعوض عن فشلة ونقصه بالاغراق فى وصف نجاحه وكفاءاته .

وهو ناشىء فى حى وطنى ، مستمع إلى الفقهاء والوعاظ فى المساجد ، قارىء لكتاب ألف ليلة ، وقارىء بعض القصص فى الادب الانجليزى .

فاستحال حى الحسينية إلى (ماى فير) أفخر أحياء لندن ، واستحال عريف الكتاب مربية سكسونية ، واستحالت القصص التى قرأها إلى مغامرات قام بها ، وكان البطل المظفر دائما .

أما الفتاة التى لم يفشل فى الاستيلاء على قلبها وحبها واتخذ ذلك برهانا على كفاءته فى الغزل فهى ابنته نعمت .

ولقد اشترى سيارة أيام الرخاء مما ادخره من راتبه فى السبع سنين ، ولا سبيل للشك فى امتلاكه هذه السيارة ، فقد رأى محمود اسمه على الترخيص . . فماذا حمل حسينا على أن يكلف نفسه مالا طاقة له به .

ربما استلزم ذلك حبك قصص مغامراته ، والباسه ثوب

السليل الاكرم للاجداد الامجاد ، كما قد حسبه محمود أول الامر .

أما المرأة التى رؤى معها فى المولد فكانت شيئا مشاعا ، يشترى بثمن معلوم ، وقد رؤيا فى ركن بالطريق العام وقال من شاهدوه انه كان ينظر إلى المارة مبتسما وكأنه يفتخر أو يتحدث بنعمة الله .

فهل هناك من آية على فشله فى نسائياته من هذا الفخر ، الذى أوشك أن يدمره لولا صفعة وتفلة من أبيه .

وأخيرا وليس آخرا فهو من حى الحسينية ، حيث يكثر استعمال كلمة (خدامك ومحسوبك .... إلى آخر هذه الالقاب) لذا فهو يسمى نفسه (خدامك حسين) .

هذا هو صاحبنا ، مثال حى لما يسميه علماء النفس (مركب النقص) ، لقد فهم وقرأت طلاسمة بعد أن كانت غامضة مستغلفة وعرفت بواطنه وظواهره . ولقد كان يظنه الجميع لغزا لا يحل فعادت إلى محمود ثقته فى قوة فراسته ونفاذ بصيرته .

وتمر الايام فيعود السر إلى استغلافه ومناعته ، تتحطم عليه النظريات والتأملات دون أن تنفذ إلى صميمه أو تصيب جوهره . والحق أن فهم حقيقته من أشق الامور ، فانك لا تزداد

منها قربا إلا لتزداد منك بعدا ، ولا تزيد بها علما الا زدت بها جهلا .

وبعد فمن حق من نعى حسينا أن نعرف به وننوه عنه فهو رجل مسن خفيف لا يخلو من ظرف ، يتلقى الاشاعات من هنا وهنا ، وينثرها ذات اليمين وذات الشمال ، من غير تحر ولا تثبت . ولعله يريد بذلك أن يلفت اليه الانظار ويكون دائما رجل الساعة وفارس الميدان .

الفصل التاسع

عود على اليخت

لم يأت أحد من الزملاء للتعزية حينما قيل إن حسينا مات فماذا استخف محمودا كل هذه الخفة، وطار به إلى منزل الفجيعة. وما الذى قعد باخوانه عن التعزية والمجاملة التقليدية؟ أما خفة محمود وفزعه للوفاة، فسل عنها تاريخ حياته. وأما قعود الاخوان، فسل عنه ذلك اليوم المشهود، الذى يتكرر مرة كل سبع سنين، يوم أغضب حسين الرئيس. وإذا كان من الناس من يقولون: الحى أفضل من الميت، فمنهم أيضا من يقولون. الرئيس خير من المرءوس.

ويعود حسين فى اليوم التالى، فيقابله اخوانه مقابلة حارة فى سخريتها.. فالحق أنهم حيوا هذا المبعوث الجديد، تحية مسرحية صاخبة. ولكنه لا يحفل بهم وبسخريتهم، بل يتوجه إلى محمود وأمارات الألم والضيق لا تزال مرتسمة على محياه ثم ينتحى به جانبا فيشكره ويطنب فى مدحه والثناء عليه ثم يقول فى يأس واضطراب: إنى كما ترى فى غاية الالم والشقاء، ولولا إيمانى بالله لانتحرت.. وتوقع صاحبه أنه محزون

لفراق أمه ، فحاول أن يرفه عنه ويواسيه : ولكن حسينا يعرب عن صبره وتجلده لسنة الحياة وناموس الوجود : فليس لأحد يد فى قضاء الله ، ولكن متاعبه الحقة التى كسته هذا الثوب الكئيب المضطرب تتضح مما قال بعد ذلك « انى أحببتك من يوم عرفتك ، ولا أزال أراك الصديق الصدوق ، الذى يركن إليه ويعتمد عليه . وانى أطلب رأيك فيما سأقصه عليك من متاعبى الحالية . كان أبى رئيسا لإيرادات وزارة المالية ، ولقد أحيل إلى المعاش من زمن طويل ، وصار محتاجا إلى مساعدتى ، فلم أبخل عليه برائبى كله ، وقبلت أن أعيش فردا فى الأسرة ، لا أمتاز عن سائر الأفراد . ومن مالى علم أخى . . . وكبر ووظف ، ولكنه أحب ابنة بائع كبد وتزوجها . وامرأتى كما تعلم ابنة باشا تركى . ومع سعة الفارق بين الزوجين ، تتطاول بائعة الكبد على ابنة الباشا وتضربها وتعتدى على أولادى . والعجيب أن أبى يظاهرها ويؤازرها فى هذا الضلال ، ويعتدى بنفسه فى كثير من الأحوال على زوجى وأولادى بالضرب والإهانة ، ويؤثر أبناء أخى بالطيبات ، فإذا اشترى عودين من القصب أعطى أبناء أخى عودا ونصف وأعطى أبنائى نصف عود . وهذا على سبيل المثال ، وأخى يأكل هو وزوجه وأولاده من كدى وتعبى ، وينفق راتبه فى التوسعة على أبنائه وزوجه فيستمتعون بما حرم على أولادى من الفاكهة والحلوى .

ويغيظونهم بهذه الفاكهة المحرمة . فماذا أفعل ؟ انى أثق باصالة رأيك ، وصدق إخلاصك . . إن أبى ليشتمنى بل ويضربنى فى بعض الأحيان . وأنا كما تعلم — لسانى قصير عن رد الإهانة فماذا ترى ؟

وكان محمود مصغيا فى اهتمام محاولا أن يعين صاحبه برأى نافع ان استطاع . فاقترح عليه أن يستقل فى حياته مع زوجته وأولاده ، ويعطى لأبيه مبلغا معلوما فى أول كل شهر ، ولكن المهموم الحزين يرد قائلا : لا أستطيع ذلك وإلا قرأ أبى علىّ الحسبنة وسورة (يس) ودعا على فى المساجد ... ولا حد لما يصبنى من البلاء عندئذ . ولكنى أيها الأخ أتوسل إليك أن تعيننى على العودة إلى القاهرة إذا نقلت منها . فيخجل صاحبه من كبر ما يرجى منه ويجيب : العفو ياسحس فأنت تعلم أن ليس لى بذلك قبل ، ولكنى أعدك ببذل جهدى إذا صدر أمر بنقلك .

وفى اليوم التالى يقبل على محمود مشرق الوجه ، طلق الأسارير وفى عينه بريق يزداد عجبا على الأيام : أتريد أن ترى فتاة اليخت ؟

فتاة اليخت ! أجاب محمود مندهشا فقد بعد عهده بسماع قصة اليخت ولياليه وغلبها على ذاكرته ما تتابع من مغامراته ومقدمات نجاحه .

— نعم فتاة اليخت . لقد قابلتنى أمس وأخبرتنى أنها تزوجت فى مصر الجديدة .

وافترق الصاحبان على أمل اللقاء عند محطة المترو فى الساعة الرابعة بعد الظهر .

فتاة اليخت ؟ أو بعد أن رأيته فى ذلك الربع المتهدم بين خرائب الحسينية ورأيت أباه عم مسعود الملا ، يعود إلى حديث اليخوت والقصور ؟ إنه لجرىء حقا ، ومع ذلك فلأتابع الكاذب إلى آخر الشوط ولن أخسر بذلك شيئا .

وفجأة تجهمت أسارير محمود واستغرق فى تفكير قاتم .

إنه لم يعد يؤمن باليخت ولياليه ، ولا بالفواتين الأربعين فماذا حمله على التفكير القاتم ، والاستغراق الأليم ؟ وماذا يدور بخلده بعد أن ودع صاحبه على أمل اللقاء ؟

ماذا حرك أشجانه وقد زعم لنفسه أنها زالت . وماذا يحمله إذا كان صادقا على التفكير القاتم والاستغراق الأليم ؟ اذكره حديث حسين بهواه ، ونكأ ما التأم من جروحه ، وقديما قال ابن أبى ربيعة .

وذو الشوق القديم وإن تعزى
مشوق حين يلقى العاشقينا ؟

لا شك أن للقاء حسين وحديثه يدا فى تحريك هذا الشجن . ولكن لاشك أيضا فى أن محمودا كان يخدع نفسه بما

كتب فى مفكرته. فانه لم يستطع ولن يستطيع مهما حاول أن ينسى يوم ٥ يونيه . لن ينسى تلك اللحظة فى الأصيل حوالى الساعة السادسة مساء حين قصد إلى مصر الجديدة ليرى كيف أجابت سونة فى بعض مواد الامتحان ، فقوبل مقابلة فاترة من أخيها الدكتور ، ولم ير لفتاته أثرا ولا جرى بذكر اسمها لسان الدكتور الشاب ، فلما حشد محمود أشتات شجاعته وجازف بقوله : كيف أجابت سونة فى الانجليزى ؟ جوزى على هذا العناء خير الجزاء . إذا ناداها أخوها وطلب إليها أن تأتى بورقة الامتحان ، وتمضى دقائق دون أن تقبل . . . ثم تدخل خادم سوداء قصيرة وفى يدها ورقة الامتحان قائلة . . ستى بتقول آدى ورقة الأسئلة .

فينبرى الأخ الكريم للخادم سائلا . ولماذا لم تأت سونة ؟ . . . فتجيبه الخادم السوداء : حضرتها بتقول الأستاذ عايز يطلع على ورقة الأسئلة فوديها له .

انها اذن الملومة على هذه الصدمة وليس أخوها كما قد خطر له أول الأمر . لماذا وكيف وهل ؟ . . . آلاف من الأسئلة تتابعت على ذهنه دون أن يهتدى الى جواب واحد منها . . . وانك لتراه خارجا من ذلك المنزل الذى اعتاد ان يخرج منه متطلقا مستبشراً فيهولنك ما يبدو عليه من ألم موجع ، وكأنما انطوت أضلاعه على شىء فارقته الروح وعزيز عليه أن يسلم

الموت ذلك الكائن الذى كان منذ ساعة حيا نابضا خافقاً .

وحاول صاحب العزم الصارم والرأى الحازم أن يغالط نفسه ويستشعر وهو يسير شيئاً من الثقة بالنفس والشعور بالشخصية ، فقد استطاع أن يحمل جسمه وينتقل به حيثما يشاء من غير هذه القوة التى كانت تدب فى أحشائه ، ويحسبها مصدر الحياة والنشاط . ويمضى يوم ولكنه لا يلبث أن يشعر بالمرض والفتور فيستأذن فى أجازة يقضيها فى بلدته . . . وفى بلدته أنفق يوميه فى ضحك وصخب مع أصدقائه القدماء . . . وخيل اليه فى بعض اللحظات ما خيل اليه فى أول عهدنا به فى هذه القصة ، أنه رجل حازم صارم ، أبى على الذلة منيع على الامتهان . . . هو العنقاء تكبر أن تصادا .

وهل كان يتردد على هذه الأسرة الا عطفا وحدباً فجوزى بجزاء سنمار ، اهمالا وازدراء ... وهذا جزاء صانع المعروف فى غير أهله .

هذه الأسرة كانت فعلا فى حاجة الى عطف ذلك الشاب وحدبه ، فقد أراح ايرادها القليل من نفقات المدرس ، وأعانها فى دراستها اعانة صادقة ، وانه لا يزال يحن الى يوم تعرف بهذه الأسرة فى بلدته اذ كان رب الأسرة (محمد بك شوقى) مأموراً لبلدتهم من أعمال الغربية وكان الطبيب الشاب طالبا

بالمدرسة الثانوية، فلما تخلف فى بعض الامتحانات اختاروا للمذاكرة معه أذكى التلاميذ عقلا وأكرمهم خلقا وأصفاهم نفسا . . . اختاروا ذلك التلميذ اليتيم الممتاز، فما هو الا شهر حتى تفوق المتخلف ونجح فى دراسته . ولم يفترقا الا بعد أن حصلا على البكالوريا ، واتجه أحدهما الى الطب والآخر الى الآداب . وكانت السيدة شديدة العطف على محمود كلما تردد على منزل المأمور رحمة الله عليه ، وكانت سونة حينذاك فى العاشرة من عمرها . ولم يلتقيا الا بعد سبع سنين على نحو ما رأينا بعد أن مات شوقى بك . . . وصارت سونة يتيمة . قليلة الإيراد .

* * *

عزم محمود إذن على القطيعة ، وألا يترك كرامته تهدر على هذا النحو . لا بل يجب أن يعلن اليها هذه القطيعة ، مشفوعة بما يشعر نحوها من ازدراء واحتقار .

(أختى العزيزة) هكذا بدأ خطابه ثم اعتمد برأسه على يده اليسرى ... فقد بطل الطبل الأجوف والمرح المتكلف ، بعد إذ أصغيا فى رفق واشفاق لذلك اللحن الدقيق العميق ، الذى انبعث من أغوار النفس ، فجاشت به وأسلمته قيادها ... وعبثا حاول صاحبنا المغوار أن يغرق تلك النغمات الدقيقة الرقيقة ، الرزينة الحزينة ، فى لجاجة من الطبل والزمر ، والضحك والتهريج ، فما وفق إلى ما يريد . . . فهاهما هاتان دمعتان . . . تسيلان من

عينه الزرقاء الحزينة ... فتبللان الخطاب — وتفسدان الورق

ولم يسلم من ندم على تلك الدموع تفيض أسى على من لا يستحق الأسى ولا يستأهل الأسف ، ولكنه عاد فأدرك أن هذا الحزن ليس لها ، بل لكرامة أهدرت ، ومعروف أنكر . . . ويحشد من جديد أشتات شجاعته ويكمل الخطاب على أكمل ما يتمنى من بلاغة وفصاحة وقوة منطق وقسوة رجولة .

ولكن هل هى تستحق كل هذا العناء ؟ وهم بالخطاب يمزقه ، ولكنه لم ينجز عزمه فألقى به فى زاوية من زوايا مكتبه

ثم يرى أن الوحدة قاتلة فيندمج فى الناس ويسرف فى الاندماج ، ويسرف على نفسه فى الضحك والصخب ، حتى لقد بدهه زميل غير حصيف بقوله : أنت الآن أسعد الناس طرا فما هذا السرور وما سره ؟

وبينما هو يغالط حسه ، ويغالب نفسه ، ويضحك ويصخب ، ثم تحول ضحكته إلى ابتسامة باهتة ، واشبه بحزن سالب موجع ، إذ مات حسين فحزن وألم وجزع ، وليس بعيدا أنه كان يبكى على ليلاه فيما كان يبكى ، إذ يقترح عليه صاحبه أن يذهبا إلى مصر الجديدة لزيارة خليلته فمن تكون هذه الخليلة فى مصر الجديدة . ؟

لقد كانت الفترة التى مرت بين فراقهما على موعد اللقاء

و بين هذا اللقاء دهورا وآمادا كما أحسها محمود ، وان كانت ساعتين لا أكثر بحساب الزمن المألوف . وعلى محطة المترو التقى الصاحبان وانزلق هذا السؤال من فم محمود . وأين تسكن فتاة اليخت من مصر الجديدة ؟ — قرب المطار .

وكانت إجابة رهيبة وجم لها محمود ، ولم يستطع بعدها أن يحشد اقل شجاعته لسؤال جديد .. فانها سونة ولاريب ومضت بهما المركبة ليرى الشاعر العاشق مصيره الأليم ... من عسى أن تكون فتاة اليخت غير فتاة أحلامه ؟ لقد سبقت لحسين مغامرة معها حينما كان محمود فى زيارتها بعد غيبة سبع سنين ، ولقد طرد حسين على نحو مارأيت . ولكن ما ذا يمنع أن يكون قد عاود المحاولة ونجح آخر الأمر ؟ فقد كان قلب الأم جانحا اليه ، عطوفا عليه ، فان حديث الثروة الواسعة يسحر قلوب النساء . ولكن من المسئول عن الكارثة ؟ هى أم هو أم هذان الطائران الغرداء فى منزل ذلك الأديب الكبير بالضاحية الجميلة ؟ أنهما سر إحجامه عن الزواج وبالتالى سر هذه الكارثة ، سر انصرافها عنه الى حسين .

وصل الترام الى مصر الجديدة وهبط الصاحبان وسارا فى اتجاه المطار ، وكلما اقتربا من ذلك الشارع الذى كان يحج اليه الشاعر العاشق . . . تثقل خطاه وتتعثر .

هذا منزلها قد بدا للعيان، بلونه الأحمر البهيج، والصاحبان يسيران، وقد يئس محمود من شجاعته وحزمه وعزمه، وسار الى مصيره المحتوم. لقد وقف عقله عن التفكير وقلبه عن الحركه، وسار مع صديقه العتيّ الجبار.

ها هما هذان قد تجاوزا دور الخطر ومرا الى الشارع الذى يلى شارع سوتة، فانظر أى تغيير بدا على هذا الشاعر الذى كاد منذ لحظة يموت هما وكمدا، دون أن يلوم أحدا الا هذين الطائرين الغردين.

انه قد استفاق من غشيته، وبرىء من شكه وندمه، فبدأ يداعب صاحبه العتى الجبار... وسأله عن اليخت وفتاة اليخت.

فلما وصلا الى منزل فخم ذى أربعة طوابق، وله حديقة جميلة، ومن عليائه كانت الشمس تودع الناس والأشياء، أشار حسين بأصبعه الضخم الغليظ الى نافذة موصدة وقال. سوء حظ. النافذة موصدة

ــ وما معنى هذا. أتنوى أن تدخل من النافذة.

ــ لا. انه رمز بيننا اذا كانت النافذة موصدة دل ذلك على وجود زوجها.

ولكن النحس ما لبث أن زال وفتحت النافذة على مصراعيها.

ــ هيا بنا يا صاح. لقد فتحت النافذة.

ــ انتظر ريثما يخرج زوجها. أتريد ان يقابلنا على الدرج.؟

— مضت الآن خمس دقائق . وهى تكفى لنزول الزوج وانصرافه .

— لا تتعجل الطيبات فالدنيا لم تبن فى يوم واحد . . . هلم الى بائع السجائر فهو واسطة الخير .

وكان النحس بالمرصاد فها هو ذا أصبعه الغليظ يشير الى دكان موصد وهو يقول . سوء حظ . المحل مقفول .

ثم تجول الصاحبان شيئا فى الصحراء بين الأحباء والأخلاء ، والرمال والصخور ، وعادا ليجدا دكان السجائر مفتوحا . فقال محمود . فرجت فاجابه حسين بعد أن نظر الى داخل المحل . . . فرجت ؟ أنه الصبي وسر هذه العلاقة مع المعلم وحده .

وهكذا أقام حسين الدنيا وأقعدها ، وأثار من أشجان صاحبه وآلامه ما لا يستحق . . . . فأى مغامرة وأى غرام وأى يخت . . . لهذا الرجل الذى يسير منتفخا يشير بين الحين والحين اشارات مضحكة بأصبعه الغليظ ، ثم يعود بالمترو وقد تفصّد العرق من جبينه ، من طول ما جازف وغامر .

* * *

ولسنا بحاجة الى أن نذكر أن محموداً لم يكن متلهفاً على فتاة اليخت ، فقد كفر باليخت ولياليه والفواتين الأربعين ولكن لحظة براءة سونة مما خشيه عليها . . . كانت لحظة سعيدة من لحظات الحياة ، تستحق أن يعمرها المرح والسرور ، والفكاهة والدعابة .

الفصل العاشر

حيرة الشاعر

أمن محمود واطمأن ولكنه عرف فى نفسه شيئاً لم يكن يقدر مداه ، وتبين من حقائق نفسه بعض ما لم يكن يعلم . أرأيت إلى الصدمة الكبرى التى زال أثرها نهائياً ؟

لقد زال ما أخلفته من غضب لكن لم يزل ما أخلفته من حزن وحنين ، وأيقن الشاعر أنه محب ، وأن الحب أطول أمداً من الغضب ، ذلك أن حنينا هزيلا عاوده ثم لم يلبث أن اشتد وتمكن . وكان قادراً فى بعض الأحيان على مغالبته ومغالطته ولكنه عجز عن ذلك منذ جولته مع حسين فى مصر الجديدة . فقد حركت هـــذه الجولة حنينه وحيرته ، وشكوكه وغيرته . فثار شعوره المكبوت كما يثور البركان . فإذا بشاعرنا موله معمود ، على نحو كان يعيبه على الشعراء المجانين . . .

وهذان العصفوران الغردان اللذان كانا مصدر وحيه ، لم يعد لصوتهما أثر فى مسمعه وخاطره . فكفر بهما وبما أوحيا . وهكذا نرى خاطرا عزيزا يهون ، وتصميما أكيدا

يتزلزل ، وصاحب عزم ومضاء يغدو ريشة فى مهب الريح . . لا حول له ولا قوة .

« ترى لو كان ما خشيته اليوم حقاً فماذا كنت أفعل ؟ — كنت بلا شك أختصر المسافة فى عودتى من مصر الجديدة لأتخذ العباسية محلا مختارا . ومن أجل ماذا احتمل هذا العناء ؟ من أجل الفن ؟ سبحانك يا فن ! ، وأى فن يرجى من نزيل العباسية ؟ . . وداعا أيها العصفوران الغردان وداعا . . سأستبدل بكما عصفورا أحلى منكما فى مسمعى صوتا وتغريدا ، وأطير معه فى السماء الشماء ولا نعود إلى الأرض أبدا » .

ولكنه لم يكد يصل إلى الفندق ويشتمل عليه سريره ، حتى يسأل نفسه فى صراحة : هل تعتقد أنها تحبك كما تحبها ؟ ولم يستطع شاعرنا الصريح أن يجيب على هذا السؤال بسرعة . فانها لا شك قد جاملته وأعجبت بشعره ، وكانت تستمع إليه بقلبها وأذنها ... كل هذا لا ريب فيه . ولكن مجالى الحب ومظاهر الهيام : الاندفاع ، والمخاطرة ، والتضحية ، والارتماء فى الأحضان والدموع . . . أين منها كل هذا ؟

أين منها ما نطالع فى الروايات ونشهد على الشاشة البيضاء ؟ . . .

ثم زاد تجهمه وحيرته حين ذكر موقفها منه حين دعاها أخوها إلى لقائه وامتنعت ... فأين هذا من مواقف العشاق

والمحبين ؟ أن هؤلاء لا تعوزهم الحيلة ولا تعييهم الوسيلة . . كن شجاعا وقلها قولة صادقة صريحة : « هى لا تحبك » .

وهنا أحس بحسرة فى فؤاده ، ولذعة فى كبده ، وظلمة تغشى جوانب نفسه ... ولكن هذه الحال السيئة لم تطل لحسن الحظ ، فقد ذكر قصة كان قد قرأها عن فتاة هجرها خطيبها لأنها لم تبد عليها (أعراض الحب) المألوفة . . وبعد عذاب مرير ، وخطأ كثير ، تبين له أنها عميقة الهوى ، صادقة الشعور ، فعاد إليها وتزوجها . ونعم بعشيقة مخلصة ، قلما جاد الزمان بمثلها . والغريب أن فتاة القصة كانت تشبه سونه ، حتى فى الشكل والهيئة... فالى جانب اتفاقهما فى هدوء الطبع ، والتحفظ فى إبداء العاطفة ، فان كلتيهما زرقاء العينين ، أسيلة الوجه ، باسمة الثغر فى لقاء الناس ، حتى ليحار صاحبها فى ابتسامتها ولا يدرى .. ألها دلالة خاصة ، أم هى سمة الوداعة وكرم الاستقبال ؟

وقد عللت كاتبة القصة موقف فتاتها بأن تواضعها وظرفها حملاها على أن تتحرز من أن تبدو عاشقة ، ونجحت فى ذلك إلى درجة حجبت حبها عن خطيبها أيضا ... فكانت الكارثة » .

« فما أشبه موقفنا بموقف هذا الفتى وهذه الفتاة . وقد وضح أن الفتاة مدلهة حبا وهياما بفتاها . . فلماذا لا تكون سونه كذلك ؟

« ولكن اتخدع نفسك ؟ هل فيك مَا يحب ويعشق يا أبا حنف ؟

« إنك لا وسيم ولا قسيم . ولا صاحب لباقة ولا أخو أناقة . فأنت مجرد من كل ما تصبو إليه قلوب العذارى ... ثم هرع إلى المرآة ليختبر شكله فيها « أعوذ بالله ! ! خسئت من عاشق . « ما هذا الشعر فى وجهك ؟ لكأنى أرى رجلا من الأدغال » .

هل كان بطل القصة هكذا ؟ أبدا ... لقد كان جميلا لبقا ، أنيقا ، بارع الحديث . لعنة الله على هذه الذقن . أما آن لى أن أحلقها بعد هذا الإهمال الطويل ؟

وسرعان ما أعد عدته ، وبدأ حلاقة ذقنه وكانت الساعة الثانية صباحا .

ولما انتهى من مهمته ، رأى نفسه فى المرآة ، رجلا عاديا لاوحشامن الأدغال . صحيح أن كثرة القلق والأرق ، والبعاد والسهاد قد أخلفت بعض الشحوب فى وجهه ، فلم يبد كما كان أبيض البشرة . . وبدا أكثر نحولا مما كان . ولكن نظرته الحزينة العميقة ، الواشية بالهم الموجع ، والألم المديد كان فيهما سحر الألم ، وجمال الحزن .

الفصل الحادي عشر

فكرة

لم يكن قد بقى من الليل إلا أقله حين بدأ محمود يفكر فى الخطوة التالية . فهو قد فرغ من أنه يريد الزواج ، ويريد أن يتقدم إلى أسرة سونه . ولكنه ، كما رأيناه كثيراً ، يستحى أن يذهب بشخصه لإعلان هذه الرغبة . فانه يجهل الأحاديث التقليدية فى مثل هذا الموقف . ولا يتصور أنه يحتمل أن يسمع كلمة الرفض ، أو المماحكة السقيمة التى تعنى الرفض .

ولكن هناك صعوبة أخرى ، ذلك أنه كان يحرص على أن يبدى أن زيارته لمنزل هذه الأسرة ، إن هى إلا تحية وفاء لود سلف ، وأيام خلت .

وأن الفتاة ليست هى المقصودة بهذه الزيارات . فكيف يستطيع أن يطلب يدها دون أن يُفهم ما يضمر ، ويعرف ما يخفى ؟

فى هذه اللحظة سمع صوتاً ينبعث فى سكون الليل ، فى نغمة رخيمة رخية ، يقول : (الصلاة خير من النوم) .

فأمَّن على قوله ، وتوضأ وصلى ، ورأى ضوء الفجر قد لاح

من بعيد ، كأنه الأمل بعد طول اليأس . . . وصلى بين أنسام السحر ، وبواكير النور ، وأنفاس المدينة التى بدأت تستيقظ بعد طول هجوع .

وبينما هو ماثل للصلاة بين يدى الله . إذ تراءى له الطيف الباسم ، فزاده حمدا وشكرا . . . وما كاد يتم صلاته حتى تناول قلما وورقا ، وبدأ يحرر خطابا إلى أخيها الدكتور ، ثم وضع الخطاب فى المظروف حتى يستطيع أن يضيف إلى ما كتب ، ما قد يتراءى له بعد ذلك .

ثم أوى إلى سريره فأخذته سنة من نوم ، حظى فيها بأكثر من نصيب الهائم الحالم . لقد عاوده الطيف الباسم فقبله قبلة حارة محتدمة . . . ما أحلاها !

أما خطابه الذى ظل مفتوحاً أثناء نومه ، فانك لتعجب من إيجازه ، ولكن هذا الايجاز يمكننا من قراءته عدة مرات قبل أن يصحو صاحبنا من حلمه الممتع الجميل . انك لا تقرأ بالخطاب على كبر رقعته إلا هذه الكلمات .

أخى الدكتور . . تحية وسلاما . . أتقدم اليكم برجاء حساس خجلت أن أفضى به اليكم مشافهة ، طامعا فى الرد اذا قبل ، والسكوت عن الرد إذا رفض . والآن علىّ أن أستجمع أشتات شجاعتى لا قول : إنى أطلب يد شقيقتكم سونه . وانى أهنئها بالنجاح فى الامتحان ، وأرجو أن يؤخذ رأيها فيما

طلبت . . . لأنه موضوعها أولا وأخيرا ؟ المخلص

محمود حلمى

ولا يطول نومه ، فقد قرع عامل الفندق باب غرفته بعد ساعتين هاتفا : « الساعة سبعة ونص ياأستاذ اصحى » فاستيقظ من أحلامه ولصق المظروف ، وذهب إلى الوزارة ، دون أن ينسى — على كثرة نسيانه — أن يلقى بالخطاب فى أقرب صندوق للبريد .

ومايكاد يصل إلى مكتبه — وهو الآن رئيس قلم كما وعده المدير فى ندوة الأديب الكبير — حتى يرى حسينا فى بذلته الرمادية العتيقة ونظرته ذات الوميض العجيب . . وقد بدا عليه من الورع والتقوى ما حببه إلى نفس محمود وقربه الى قلبه : صباح الخير يا أستاذ حسين .

— صباح الخير يا بك . . وبعد لثم يده — كالعادة — وهو لا . لا . أستغفر الله » فى ابتسام ساخر كالعادة أيضا ، قال حسين :

— أتعلم أن الوزارة تعد حركة تنقلات . وخدامك حسين قلبه يرتجف ؟

— لا أظن أن هناك مبرراً للارتجاف ، فان المدير والمراقب العام يحبانك ، وقد نسيا كل ما يتعلق بالمسألة إياها

هل حضرتك متأكد من هذا ؟

— جدا .

— ولكن المدير لا يلقانى بما عودنى من البشاشة . فهل تسمح أن تصحبنى إليه ، لا كرر له الاعتذار وأؤكد له حبي وعرفانى بالجميل .

— لا مانع طبعاً . هيا بنا إذا شئت .

ودخل الصديقان ، محمود بطريقته السريعة وتحيته القصيرة الباسمة ، وحسين بطريقته التى وصفها المدير يوم أغمى عليه ، من أثر الثورة التى تتكرر مرة كل سبع سنين .

وقد طلب من المدير الصفح والمغفرة وهمّ بلثم قدمه ، فأكد له المدير أن المسألة قد انتهت من زمن ، وأنه لا يشك فى طيبة قلبه وسلامة نيته ، فلم يفت حسينا أن يقول بالانجليزية (الخطأ من صفات الانسان ، والعفو شيمة الرحمن) .

وقال حسين لصاحبه بعد إذ عادا إلى مكتبه : الآن اطمأن قلبي وهدأت نفسى ، وانى أحمد الله أن فراستى لم تخطىء ، فقد وثقت بك منذ لقيتك ، واطمأنت نفسى اليك .

— القلوب عند بعضها يا سحس .

— إنى لأرجو الله أن أتمكن من خدمتك ورد جميلك . أنك أول موظف أراه ، يعمل على تأليف القلوب .. وكلما رأى نارا صب عليها ماء . . . لا (بنزين) .

ولكن ذكر البنزين لم يعد به الى حديث السيارات والطيارات .. لحسن الحظ .

الفصل الثانى عشر

ما ذا فى الأمر

مضت خمسة أيام دون أن يصل رد ما . ومعنى هذا السكوت أن الطلب رفض، ولكن الأمل يبقى ما بقيت الحياة، ففى كل يوم يسأل الساعى وكان أسود خفيف الظل .

ـ أليس لى خطابات ياعم عثمان ؟

ـ لا أنت مش بيبعت جوابات ، فش حييجى جوابات

فضاق شاعرنا بالحياة والأحياء ... وأظلمت فى عينه الدنيا .. ولم يعد قادرا ، كما كان حين تعتوره أزمة نفسية ، على الاندماج فى الناس ، وتلمس السلوى من الضحك والمسامرة . لقد ضاق حتى بالضحك والمسامرة ، وبالأصدقاء والندماء . وعجب عامل الفندق من كثرة اعتكافه ، وصدوفه عن الناس ، وراعه أن يرى الوسادة كل صباح مخضلة بدمعه .

وفى اليوم السادس دخل عليه حسين فى مكتبه ، وقال له فى لهجة الاخوة والإخلاص : يامحمود ، مالك تبدو فى هذه الأيام متعباً مكدودا ؟ انى أرجوك أن تفضى بسر هذا الأسى والشجن ، عسى أن أستطيع أن أرفه عنك وأشاركك الشعور والتفكير ، وانك لتذكر أنى أفضى إليك بأسرارى التى

حبستها عن أقرب الأهل وأقدم الصحاب . أنا غير فضولى مع ذلك ، ولكنى أحب أن أقول لك إن قلبي وجهدى وما لى تحت أمرك .

وكان محمود مطرقا طول هذه المدة ، وفى رأسه دوار شديد فقال لصاحبه :

— كل ما أحتاجه الآن قرص اسپيرين .

— أتعنى أن حديثى صدعك .

— كلا إنه أول حديث أنست إليه فى وحدتى ووحشتى ولكنى لم أنم عدة ليال متعاقبة .

— لماذا ؟ خيرا إن شاء الله .

وخرج ليأمر الساعى بشراء قرص اسپيرين لسعادة الريس

وفى هذه اللحظة كان محمود حائرا ، أيتكلم أم يسكت . لقد طال عهده بالسكوت والكتمان حتى كاد ينفجر ، ولم يكن يرجو خيرا كثيرا من قلب حسين أو جهده أو ماله ، ولكنه رأى أن فى الإفضاء تنفيساً عن ألمه وحزنه ، ومشاركة فى الرأى قد تعين على الاحتمال ، أو إصلاح الحال .. خاصة وأن حسينا رجل مجرب .

قص قصته على صاحبه فى شجاعة وتجلد ، وحاول بادىء الأمر أن يخفى العنوان واسم الأسرة ولكن حسينا قال

بضرورة معرفتهما كى يستطيع أن يكوّن رأيا صحيحا فى الموقف، فأجيب إلى ما طلب .

— أوه انى أعرفها ، ولقد لعبت معها دورا كبيرا ، وكانت تحاول أن تتصبانى ، ولكن هيهات ؛ فسأله محمود والدم يغلى فى عروقه ، وإن كان قد أورى سكينه فى صدره كما يقولون ، وتظاهر بعدم الاكتراث ، ومن أين عرفتها ؟

— انها قريبة فيفى فتاة اليخت .

— ولماذا لم تتزوجها ؟

— لأنى لم ولن أتزوج أبدا ، فأنا كما تعلم ... لا أهيم بالغيد الفواتين ، ولكنى أولع بالصبيات فى سن محكمة الجنايات .

وما هى آخر مرة قابلتها فيها ... فحسب وجمع وطرح ، ثم قال : فى (٥) ابريل ... وكان محمود لا ينسى هذا التاريخ أبدا .. فهو يوم تجديد علاقته بهذه الأسرة ، فهمس فى أذن خاطره : اطمئن . . . لقد تمخض الجبل .

ولكنه همس فى أذن حسين : صف لى كيف كان لقاء ٥ ابريل :

لقد قابلتنى الفتاة فى ثوب أبيض شفاف ، وتركتنا أمها متشاغلة ببعض أعمال المنزل . . وقد طلبت منى الفتاة أن أتزوجها ، فاعتذرت فى أدب ، ولكنها ثارت وطردتنى من المنزل . . انها مجنونة لا ريب .

— أنا لا أسمح لك بأن تتهمها بالجنون . . وأرى أنك لا تتحدث بما كان فى (٥) إبريل . . بل بما تعود الناس فى ابريل من الكذب والبهتان .

لقد كنت معها يوم (٥) ابريل يوم طردوك . . وقد جئت خاطباً . . فامتقع لون حسين وقال له محمود ضاحكا : « انكشفت ياسحسين ، ميجيش منه » .

الفصل الثالث عشر

من مصدر وثيق

وفى اليوم التالى أقبل حسين على محمود وقال : «سأفاجئك مفاجأة سارة . فماذا عسى أن تكون» ؟

فخطر فى ذهنه أن مشروعه قد نجح .

ولكنه ما لبث أن ذكر ما تعوده من حسين ومفاجآته : جبل يتمخض دائما عن فأر ، فقال لحسين مغضبا :

— ليس لى أعصاب تحتمل المفاجأة أو التخمين ، تكلم ولا تفلقنى .

— لقد فلقتنى أنت طويلا بتجهمك ، فهلا سمحت لى بمضايقتك قليلا قبل أن يزول تجهمك ؟

— ماذا تقول ؟

— أقول خمن . ما هى مفاجأة اليوم ؟

— بأبيك يا حسين إلا ذكرتها دون أن تربك مخى ، فهو لا يحتمل ارتباكا جديدا .

— إذن ها هو ذا خطابك الذى أرسلته إلى الدكتور .

— وأين وجدته ؟

— أين وجدته ؟ فى صندوق البريد .

— تكلم وابن فانها مفاجأة كبرى حقا .

— ذهبت إلى بواب العمارة ، وحييته وجلست إليه ، وأفهمته أنى أقمت طويلا بالنوبة عند ما كان أبى مأمور المركز الدر ، كلمته بلهجة نوبية فأحبنى ووثق بى ، ثم سألته عن الدكتور ، فذكر لى أنه سافر إلى الاسكندرية مع الأسرة جميعها ، بعد أن انتهى امتحان ست سونه بيومين ، فسألته : « وماذا تفعل بخطابات الدكتور ؟ فقال » :

آخذها من ساعى البريد ، وأحولها إلى الاسكندرية . والدكتور خطاباته قليلة أوى .

— يعنى آخر جواب وصل إمتى ؟

— من عشرة أيام تقريبا .

— إنى أرسلت إليه خطابا من منذ خمسة أيام . . فأين هو إذن ؟ .

— لا أدرى .

— أليس هنا فى العمارة صناديق بريد ؟ فلعل ساعى البريد لم يجدك يوما فوضع الخطاب فيه .

وكان رأيى سديداً . . لقد وجدنا الصندوق مفتوحا وهذا الخطاب به .

— لقد آمنت ببراعتك يا حسين .

— أنا خدامك ومحسوبك يا سعادة البك

وهناك أخبار أخرى فهل أنت مستعد لاستقبالها

— قل قل باركك الله

— لما أخذت الخطاب سألت البواب عن الدكتور وسونه وأحوالهما . . وذكر لى أن نجاحها يرجع الفضل فيه إلى « واحد أفندى كويس أوى » فقلت :

محمود أفندى ؟ فسألنى فرحا : أو تعرفه ؟ قلت : جدا .

قال : تسمح تقول له « محمدين البواب بيسلم عليك كثير وعايز يشوفك ضرورى ضرورى ولو كان يعرف عنوانك كان فات يسلم عليك » .

— وما رأيك ؟

— رأيي أن تمر عليه فانى أقرأ فى عينه سرا . ولا تتكبر عن مجالسته فانى أخاله مفتاح القضية .

— سأمر عليه . . . فقد آمنت ببركة عم محمدين .

ولم يكذب محمود خبرا ... فما كاد ينتهى موعد العمل، حتى هرع إلى مصر الجديدة ، وأعجبته سرعة المترو فقد نهب الأرض فى مدة وجيزة . وسرعان ما كان أمام عم محمدين يحييه والبواب يرد على تحيته بأحسن منها .

ثم دخل البواب حجرته ، وعاد وفى يده عدة كتب سلمها إليه قائلا : ست سونه قبل أن تسافر تركت لك هذه الكتب

لأنها لا تعرف عنوانك بالضبط ، وشددت علىَّ أن أسلمها لك يدا بيد . ولو كنت أعرف عنوان سعادتك كنت جيت سلمتها لك .

— حصل خير . أنا متشكر جدا يا عم محمدين ، وأعطاه قطعة من ذوات العشرة قروش ، فتهلل وجه عم محمدين ودعا الله أن يوفق (محمود بك) ويكتب له السعادة والهناء .

وما يكاد يمضى فى الطريق بضع خطوات حتى يقلب كتبه كتابا كتابا فلا يجد فى داخلها شيئا . فيقفلها ، ويجلس فى الترام . . ثم يعيد التقليب .. وفجأة يجد فى جيب أحد الكتب ، وكان مخصصا لوضع خريطة جغرافية . خطابا . . من سونه . . باركك الله يا حسين .

نشر الخطاب وبدأ قراءته فى الترام :

أخى محمود :

يعز علىَّ أن أضطر إلى السفر إلى الاسكندرية دون أن ألقاك ، وإنى لأعتقد أن الاسكندرية بمباهجها ، لا تعدل جلسة واحدة معك ، وأن سحر السماء والماء سيزيد شوقى إلى شعرك البارع فى وصف السماء والماء ، وانك لتعجب من غير شك لتركى هذا الخطاب على هذا النحو ، ولكن الحقيقة إنى أبرح هذه المدينة دون أن أستطيع معرفة عنوانك بالدقة ، فكل ما أعرفه أنك فى وزارة الأوقاف ، وهذا عنوان لا يكفل

وصول الخطاب إليك ، وإنى أحس أنك عاتب علىّ ، ولكن ستصفح من غير شك إذا عرفت كل الظروف ، وستعرفها إذا أجبت رجائى بزيارتنا بالاسكندرية ، كن واثقا من إخلاصى كل الثقة ، وأن قلبى ليدمى ويتمزق كلما ذكرت أنك خرجت من منزلنا غاضبا ، وإنى أطللت من النافذة ورأيتك على هذه الحال فمنعنى من أن أتبعك أو أناديك ، ما منعنى من لقائك بالمنزل . . مرة أخرى ... كن واثقا بى ولن تندم على ذلك ، وموعدنا (كليوباترا — شارع كذا — رقم كذا) ؟

أختك المخلصة : سونه

قرأ محمود هذا الخطاب مرات ومرات، حتى وصل المترو الى نهايته بالقاهرة، فنزل وهو لا يدرى أين يذهب . . لقد سار وسار وسار ، دون أن يستقر فى مكان . فان كل هذا السرور لا يسعه مكان واحد . . فهو يجول به فى كل مكان .

ان هذا الشـــاب الذى ذاق الألم والحزن ، والحيرة والارتباك ، يذوق اليوم نشوة النعيم . إنك اذا نظرت الى وجهه طليقا بعد عبوس ، متهللا بعد تجهم ، وإلى عينيه باسمتين بعد طول إدماع . . لاتملك إلا أن تحمد للدهر صنيعه . . إنه الآن يرى كل شىء جميلا . . وكل من يلقى من أصدقائه ظريفا

عاد الى الفنـدق بعد طول تجوال . . فابتسم له عامل الفندق قائلا :

— إزى الحال ؟

فأجابه — حال بمب .. وضحك وناوله شيئا فقال العامل: مرسى أوى . أنا والله كل يوم كنت أغير لسعادتك بياضة المخدة . . فالحمد لله

ويذرع صاحبنا الحجرة ذهابا وإيابا ، وهو يفكر فى السفر إلى الاسكندرية

— السلام عليكم يامحمود بك

— أهلا حسين ، . لازم أبوس إيدك النهارده ..

فتمنع حسين . . وقال هو هذه المرة : استغفر الله . .

ولكن محموداً انحنى على يده حتى قبلها

سأقص عليك ماحدث

واستمع حسين الى القصة مغتبطا مسروراً ثم قال : أظنك الآن تثق بخدامك حسين

— كل الثقة : انه دين فادح على ياحسين .

— كلا فان أفضالك علينا كثيرة . وماذا تنوى أن تفعل.

— أذهب الى الاسكندرية بأول قطار وأكتب لك خطاب اعتذار تسلمه إلى المدير

— بكل ممنونية

— ألف شكر ياحسين

وسرعان ما كتب خطاب الاعتذار وأعد حقيبته . .

ومضى القطار به الى الاسكندرية وفى المســـاء نراه وإياها يتمشيان على الكورنيش . . فلا تكاد تصدق ان هذا محمود حلمى صاحب الآلام والشكوك . . لكأن لم يذق فى الحياة إلا النعيم المحض والسعادة الخالصة ، وانها لتبدو بابتسامتها الشاعرة وروحها الحلوة أسعد ماتكون الفتاة نعيما وسعادة .

— على فكرة . ماذا كان سبب امتناعك عن التسليم على يوم الانجليزى ؟

— سبب يطول شرحه وقد زال ولله الحمد

— هل هناك مانع من ذكره ؟

— كلا . . فى أول هذا العام تقريبا عرض على أخى أن أتزوج زميلا له . فاعتذرت وقيل انه تزوج بفتاة أخرى فحمدت الله لأنى أراه سمجا ثقيل الظل . . وفى أوائل يونيه عاود طلبه وألح وجعل يتوسل ويرسل الشفعاء . فأعلنت الرفض البات . وقلت بلهجة شديدة إنى لا أقبل أن أفاتح فى هذا الموضوع مرة أخرى . وفى اليوم الملعون قال لى أخى :

لماذا ترفضين أتأملين أن تتزوجى خيرا منه ؟

قلت : وأى خير فيه :

قال : دكتور .. وغنى . وله مركز .. حضرتك فيلسوفة؟ شاعرة ؟ . . الظاهر ان الشعر أفسد عقلك .

فعلمت انه يشير الى من هو « خير من زميله »

قلت : هذا التهكم والتبكيت لا أقبله . انه تلميح غير كريم .

وحدث فى هذه اللحظة أن جنابك شرفت . وناداني أخى . . أقدرت الموقف ؟

ـ قدرته تماما . . لقد كنت حسن الظن بأخيك . اننا أصدقاء قدماء وما كان يليق به هذا .

ـ إنه يحبك أيضا ، ويذكر دائما فضلك عليه وعلينا . ويتحدث بودك ووفائك . . ولكن حضرته كان (زعلان) أوى عشان صاحبه . لكن حصلت حكاية جعلته يكره صاحبه هذا جدا . فهذا الصاحب لما يئس قال لأخى : ومن تكون أختك ؟ . . لقد كنت أنوى أن أتسلى بها يومين . . ثم أطردها . . هل هى من مقامى ؟ أنا أستطيع أن أصاهر أكبر (باشا) فى البلد . فاجابه أخى بتفلة فى وجهه وصفعة على قفاه . ولكن بعض الحاضرين ـ وكانوا أصدقاء الطرفين ـ أخرجوا الطبيب النذل من النادى ، وهدءوا ثائرة أخى بقولهم : إنه سكران . . شرب كثيرا جدا وفقد رشده ، حقك علينا يا دكتور

وعاد أخى الى المنزل ثائرا على زميله النذل ، فهدأت ثائرته فانحنى على يدى وقبلها وقال :

ـ إنك تعلمين ما لا أعلم . لقد صحت نظرتك وخابت نظرتى . لقد آمنت بذلك ، ولن أفرض عليك رأيى بعد اليوم . سامحينى .

ان الاخلاق أهم من المال والجاه آه . . »

* * *

وكان الشارع مضاءا أكمل اضاءة . والسماء زرقاء صافية ، يتوسطها البدر أجمل ما يكون . . . والموج يصطخب ، ولا يعرف الهدوء ، كأنه يذود عن المدينة كل ما يعكر الصفو ويشوب النعيم . .

فقال محمود : ولكنى وجدت هذا الخطاب فى صندوق بريدكم . وسلمها . خطابه الى أخيها . الذى قرأنا حكايته . فبدا فى وجهها وميض . . . فاق كل وميض فى الارض أو السماء ، وميض روح تحقق لها الامل ، وصح الحلم .

— أرسله اليه بقنا ، فقد ذهب فى بعثة مقاومة الملاريا منذ أسبوع

— أنا أيضاً عجبت لأنى لم أجده فى المنزل وقت العشاء .

— وهل تثقين بالنجاح ؟

— على كل حال هو سيترك الأمر لى . وسأفكر هل أنت تصلح أم لا ؟

وبرغم أن المكان مضاء ، وبرغم أنه طريق عام . . فان سحر ابتسامتها وهى تجيب هذه الإجابة ، قد غلبه على خجله وحكمته وحذره ، فطبع على فمها قبلة ، فاقت قبلة الحلم ، وقبلة السينما . انها قبلة الحب الموجب العنيف . . الذى طال عليه

الحرمان والعذاب .. (الآن قد كفر الحب عما أسلف والآن أستطيع أن أكتب فى المفكرة : إن صدمة (ه) يونيو قد زال أثرها نهائيا) .

وبعد شهر تقريبا تم الخطوبة ، ويصر حسين على أن يذهب مع محمود إلى الاسكندرية ليشاركه أفراحه كما شاركه أتراحه : فيرحب به محمود قائلا : انها أقل رد على أكبر جميل .

ونرى الشمل ملتئما فى عصر يوم بهيج فى منزل قريب من البحر ، ، وقد أعدت أدوات الشاى .

وانا نعرف معظم الحاضرين ، فهذا سامى بك الأديب الكبير برأسه الأشيب الجليل ، وذاك سمير بك التابعى صهره اللبق ، وإلى جانبه حسين ، فالدكتور شوقى وإلى يساره طبيب خفيف الظل ، وسيم طلق المحيا ، قدمه الدكتور شوقى إلى الحاضرين باسم الدكتور على درويش ، يليه طبيب غير ظريف .

وكان لاسم الدكتور درويس صلة بذكريات الشاعر . انه أبو (سوسو) التى رأيناها فى الفصل الأول . . . وقد سأله محمود : كيف صحة سوسو ؟

— أوتعرفها؟ — نعم لقد قالت لى ان أباها مولد رجال .

فضحك الحاضرون وأغرقوا .

ودخل محمود يتزود بنظرة من سونه وينال منها قبلته

الثالثة ثم يعود إلى ضيوفه فيسمع حسينا يقول : « وكبير مهندسى شركة الطيران بجنوب أفريقيا سابقا — وعضو الجمعية البريطانية لعلماء النفس ، وقبطان سابق لأساطيل الولايات المتحدة . . .

لا مؤاخذه يا محمود بك . لقد رأيتك مشغولا فتوليت عنك تقديمى إلى الحاضرين ، وتلك قاعدة متبعة فى انجلترا » وقد ألم محمود لهذا المظهر ، لا سيما وقد بدأ الأطباء يتهامسون (برانويا . . برانويا) [1] ويتضاحكون .

أفمن يكون صاحب الفضل فى إنقاذ حبيبين .. يكون نصيبه هكذا . . وارتفع الضحك وكثرت النكات ، فقد رد أحد الحاضرين عليه حين قدم نفسه بقوله : تشرفنا ، ياسى «جيرنج»

وأعقبتها عاصفة من الضحك لم يبد حسين أى قلق أو اضطراب لحدوثها . ولكن محمودا غلا الدم بعروقه فقال محدثا الأطباء :

(أرجوكم يا اخوان أن تراعوا أنه رجل طيب وأنه صاحب فضل خاص علىّ) فسكت الضاحكون . . وفى أثناء سكوتهم قال حسين : —

أليس هذا خيرا من التحدث فى سير الناس ؟

فأجاب الجميع ضاحكين : من غير شك .

أما الطبيب غير الظريف فأصر على أن يهمس فى أذن

---

(١) اسم فنى يطلقه الاطباء على مرض عقلى خاص

من يجاوره: برانويا — برانويا لا شك .

والدكتور درويش يرد عليه هامساً: ياأخى العريس زعل عيب !

وهكذا نرى حسينا صاحب الكفاءة والمقدرة يبدو وكأن لا كفاءة له ولا مقدرة إلى أن حضر الشاى والحلوى.. فبدت الكفاءة والمقدرة . . فقد ثأر هذا الآكل المفوه لنفسه أيما ثأر من غريمة الدكتور الذى كان لا يزال مشغولا بملاحظته السخيفة : برانويا برانويا وكان محمود قد غافل الضيوف ودخل . . . ليعد الحلوى والشاى . . والله أعلم بالسرائر . . وإن تكن سريرته الآن لا تخفى علينا . . فها هو ذا مقبل . . وجهه متهلل وعيناه تضحكان . . فلاشك أنه ظفر بقبلة جديدة . . . هنيئا له .

وقد ألقى نظرة على الحاضرين فوجد سامى بك ممتنعا عن تناول الحلوى لأن طبيبه أمره بذلك . . فقال له الأطباء الحاضرون : خليها على الله . . الأكل فى ساعة الفرح لا يضر » .

وقد وافقهم على رأيهم وأكل قطعة واحدة من الحلوى. كذلك اجتزأ سمير بك بقدر يسير . . أما فارس الميدان غير منازع فكان حسين . . وعهدنا ببطولته فى هذا الميدان غير بعيد . . . يوم خطابه باللغة التى يجيدها . . .

وهذا هو الدكتور درويش يهمس فى إذن جاره الطبيب الثرثار : لقد انتهز حسين انشغالك فى الكلام والهمس ولم يبق أمامك شيئا . . واستيقظ هذا الطبيب كأنما من حلم . . ونظر أمامه فلم يجد شيئا حقيقة . . فالتفت إليـــه الدكتور درويش ضاحكا وقال أيكما أعقل من صاحبه إذن . وأيكما عنده برانويا ؟ »

وأجاب الطبيب معترفا : « هو أعقل منى بكثير . . وأنا الذى عنده برانويا لا ريب » .

وقد سمع الحاضرون هذا الحوار وقهقهوا . . أما حسين فلم يسمعنا فى هذه المرة قهقهته الصاخبة ، بل أرانا بسمته العريضة ، ذات الوميض الغريب ، التى حيرت محمودا ، ولكنها لا تحيره الآن :

فهى بسمة النفس الصافية التى لا تضمر السوء ، ولا تعرف الحقد . بسمة القلب الطيب الذى جهد حتى أسعد غيره ، ولا يهمه بعد ذلك أسعد هو أم شقى بسمة ما أطهرها وما أندرها .

ثم انصرف الشاعر عنها إلى ابتسامة عينين أخريين ، تملان الكون فتنة وسحرا ، وفنا وشعرا ؟